روايته 'صائد اليرقات'
في القائمة القصيرة
لجائزة بوكر العربية 2011

أمير تاج السر

زهور تأكلها النار



زهور تأكلها النار

لوحة الغلاف بريشة الفنانة عالية الفارسي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

أمير تاج السر

زهور تأكلها النار



لديّ أسئلة كثيرة
كثيرة جداً.

القارئة:

قرأت رواية **توترات القبطي** منذ فترة، ثم عدت وقرأتها مرة أخرى، ووجدت فيها كل ما يمكن أن أتخيله عما حدث للرجال من إيذاء وقهر، في نص "أباخيت" الرهيب، كما تسميه. لكنني أتساءل:

- ماذا عن المرأة داخل النص؟ المرأة السبية، والجارية بحسب قوانين أباخيت؟ من يخبرنا بما حدث؟

سارة. ع - قارئة.

الكاتب:

- يخبرك هذا النص: **زهور تأكلها النار**.

أمير. ت - كاتب.

تحدث يا خوان...

تحدث إلى النار أرجوك،

حدثها عن حبيبتك،

قل لها هي زهرة،

وستستعر أكثر.

النار غيورة يا خوان

حبيبة مهجورة بلا شك

لكني أريدها،

أريد أن أحترق، أن أرحل،

أن أجيء مجدداً في شكل نار أخرى،

تأكل النار التي أكلتني.

ريماس- شاعر إسباني مفترض.

الفصل الأول

شغف ومدينة

-١-

ما زلت أذكر بوضوح شديد، وبرغم مرور زمن طويل، ذلك اليوم الاحتفالي الكبير، في نادي "يوتوبيا" الأرستقراطي، الذي التقيت فيه ميخائيل رجائي، لقاءً مختلفاً عن ذلك الذي حدث كثيراً في عهد الطفولة، ومرات معدودة، بعد أن كبر كلانا. هو تجاوز الثلاثين بسنوات عدة، وانتفخ كثيراً بوظيفته، وأنا بأنوثة مكتملة وواضحة، أخطو إلى سن العشرين.

كانت أسرتانا تتعارفان جيداً، تتعارفان بحكم أننا أقباط، وقليلون نسبياً، ونعيش في مدينة "السور"، في غرب البلاد، التي لم تكن كبيرة ولا معقدة، ولا تضيع فيها القرابة والصداقة، وحتى مجرد المعرفة السطحية، إلا نادراً.

كان ميخائيل رجائي محاسباً في مجلس المدينة، التي يحكمها بضواحيها، التركي العجوز المتغطرس يوسف دامير. وكان معيناً من قبل السلطة المركزية، هكذا تقول وظيفته الرسمية، وجامع ثروات خشناً، ومزعجاً للمعنيين بالأمر، كما يقول نشاطه المشع، الذي حدثني عنه كثيراً، وأعرف أنه مسؤول عن كل ما يأتي

بالثروة، التي تحتاجها الخزانة العامة للدولة، ويحتاجها الحاكم المحلي، لتغطية نفقات كثيرة، وتتكون من إيرادات ضرائب الزراعة، والرعي، والتجارة، ونشاط القوافل، وأيضاً من ضرائب عالية، تفرض على بيوت المنكر، الموجودة منذ أن ولدت السور، ويتعاقب على الخدمة فيها نساء تعسات، في حي "ونسة" القديم.

كان والدي جماري عازر، هو تاجر الذرة الأكثر شهرةً وثراءً في المنطقة، "جماري الزعيم" كما يلقبه التجار، زملاء النفوذ وجمع المال، وأبي الرائع كما أحسه دائماً، حتى وهو في قمة السخط. أتقاسم معه الأحلام الجيدة، والأحلام المزعجة، على حد سواء، وأزعم أنه اتقدت بيننا صداقة عظيمة، حافظنا كلانا على إبقائها كذلك. كان يحدثني عن العمل، وما قد يصادفه من مشقة، وهو يجادل ويحتد، ويقبل ويرفض، وأحدثه عن توافه الفتيات بما فيها الحيض إن تأخر، والأزياء وموديلاتها، والقصص الرومانسية، وتسريحات الشعر، والعطور، والرغبة المتأصلة لدى كل فتاة، أن تعثر على شبيه لأبيها وتتزوجه.

كان يتقبل تلك التوافه، بصدر عاطفي رحب.

لم تكن أمي تتحدث كثيراً، حقيقة لم تكن تهوى الحديث بلغة المكان الذي نعيش فيه، برغم إجادتها للغة. هي عبارات قليلة تضم مفردات السوق، وأسماء الأغراض البيتية، والسلع الاستهلاكية اليومية، وقليل من لغة الحوارات والعواطف، تنتقيها بتأن، وتستخدمها، حين لا يكون ثمة مفر من استخدامها.

كانت طليانية، من ضواحي مدينة فلورنسا، عاصمة الفن في

إيطاليا، وكانت رسامة هاوية، تحاول الاستفادة من عبق الشرق، وتنوعه، تنقشه في لوحات من الخشب، والقماش، حين صادفها أبي في رحلة كان قام بها لمصر، ذات يوم.

لا أعرف لماذا تزوجت فاليرينا اسبرجان ماير، الطليانية، الرسامة الجميلة، التي تنتمي إلى أسرة عادية، لكنها متحضرة، بقبطي من بلد أفريقي بعيد وعشوائي، لن تصل إليه إلا مغامرة على ظهر الإبل، ولن تغادره إلا نادراً بسبب المشقة وطول السفر، ولماذا غازل القبطي، الصبي الطامح ليصبح تاجراً، في ذلك الوقت، فتاة من ضواحي مدينة فلورنسا، صادف والتقاها في مصر. ولم أستطع أن أخمن أبداً، كيف كانت نظرتهما الأولى، لمن كانت وعلى من كانت، وكيف نسج طريق ممهد سلكته عواطفهما حتى اتحدت؟

لم أفكر في ذلك الأمر حقيقة، ولم أسأل أبي أو أمي، وظللت أردد بيني وبين نفسي دائماً: إنها سطوة كيوبيد، إله العشق، حين يؤسس العواطف، ويبنيها، ويجعلها متاحة لمن يريد. كنت مؤمنة بذلك برغم غرابته، ولطالما ارتعبت من مجرد فكرة أن يمسك بي كيوبيد، ذلك الأسطوري المجنون، يشيد عواطفي كما يريد، ويلقيني في سكة متسول أو معتوه، أو رجل بلا قلب، وأنعقد إلى حبله. لكن ذلك لم يحدث، بصفة جادة، ونهائية، لحسن الحظ، فقد كنت مضطربة العواطف بشكل غريب في بداية تعرفي إلى عاطفتي الخاصة كأنثى، ولطالما أعجبني أشخاص لا يتوقع أحد أن يعجبوا فتاة في مثل سني، على الإطلاق، ذلك الإعجاب الطفيف الذي يتلاشى بسرعة كأن لم يكن أبداً، وأضحك بشدة

كلما تذكرت بأنني ارتعشت أمام مسنين مهدمين، أمثال نوح توكاري، العامل القديم عند أبي، وكان في الستين، والعم مفكر فندوري، تاجر الخمور اليوناني، والد صديقتي ماريكار، وصديق والدي، وقطان محمدو، الذي كان سائحاً أفريقياً من غينيا، في الخمسين، ساعدني على الوقوف يوماً حين تعثرت بحجر وسقطت في الطريق، وأخذته إلى البيت لتشكره العائلة، وظللت هائمة في دفء يده التي أوقفتني، أرتعش لأيام، ثم انتهى كل شيء. وكيف أن مدرس العلوم الأولية الذي عينه أبي ليدرسني، في البيت، بعيداً عن قساوسة الكنيسة الذين احتكروا التعليم في مدينة السور، في ذلك الوقت، وكان اسمه عيسى، ويسمونه ابن مريم، قد أرقني عدة أيام بسبب ابتسامته التي كانت عادية جداً، في الواقع، كانت بشعة، وتصورتها بفعل الارتباك، ساحرة، إلى أن اكتشفت حقيقة معناها وأقلعت عن رعشتي في حضرته.

كانت أمي، تعرف تقلبات مزاجي، وعاطفتي جيداً، وتعرف أنني أرتبك وأمعن في الارتباك، في الأيام التي تصيبني فيها لعنة الحب الأبله العابر، والتي تأتيني من حين لآخر، كما ذكرت. لم أخبرها بشيء قطّ، ولم تسألني عن شيء، وبرغم ذلك أعرف أنها تعرف، وسمعتها في إحدى المرات وأنا أعبر بصالة البيت الكبيرة، والمؤسسة جيداً بوصفها صالة بيت لتاجر كبير، تخبر نفسها بلغتها التي أفهمها جيداً، وفي صوت هادئ بسيط، وهي تقف أمام مرآة، بضرورة أن ترى خميلة متخصصاً نفسياً في أقرب زيارة لها إلى مصر. ثم تهز رأسها موافقة.

خفت في ذلك اليوم كثيراً، لم أظهر أمام أمي، إلا فترات متقطعة، لأيام عدة. في الواقع، مرضت برهاب النفسيين، وكان مرضاً نادراً لكنه موجود بحسب علمي، كنت أعرق، وأنتفض، أشاهد مرطبات وجهي، ودهانات الجسد والشعر، تختفي من أماكنها فجأة على طاولة الزينة، وتعود. أتحسس شعري الطويل، الغزير، ولا أعثر عليه في أحيان كثيرة. أتحسس نهديّ، وأجدهما في حجم حبات النبق، وأصرخ من كوابيس ضارية، تزورني أثناء نومي المتقطع، وحين زالت عني الأعراض بعد أيام، أقسمت على عدم الذهاب إلى مصر لأي سبب، إن كان اقتراح السفر من أمي.

لم يكن أبي قد انتبه إلى أيام مرضي القصيرة، والآباء قد ينتبهون إلى بقع الزيت الصغيرة، غير المرئية، على صدر قمصانهم الداكنة، وعدم وجود مزهرية، دفعوا فيها مبلغاً من المال، في مكانها المعتاد من صالة البيت، والعرج الطفيف الذي قد يصيب فرساً غالية، من جراء حصاة علقت بحافرها، وربما نظرة خادمة بريئة، وبلا أي معنى، لكنهم نادراً ما ينتبهون، أو لا ينتبهون مطلقاً، لخطوط ريشة الأرق على عيون أبنائهم، والشيخوخة التي تنخر قلوب نسائهم بفعل الحمل والولادة، وترتيب الأطفال حتى يكبروا.

كنت وحيدة، وأعرف أنني سأظل هكذا وحيدة من زمن طويل، الزمن الذي كان من الممكن أن يمتلئ فيه البيت بصبيان وبنات، ولم يحدث ذلك. كنت تلفتّ حولي وأنا صغيرة، متذمرة، ولم أر صغيراً يتذمر في البيت غيري، وتلفت وأنا مراهقة واهنة العواطف ولم أرَ مراهقاً في البيت بأي نوع من العواطف، غيري،

وعيال الجيران الذين التصقت بهم كثيراً، وتبادلت معهم شقاوتي الأولى وألعابي التي توفرت عندي، مثل الدمى المصنوعة من الحجر والصلصال والقطن، كانوا مجرد عيال جيران، يصرخون ويضحكون ويسقطون ويقومون، ويبكون وتتسخ ثيابهم، وينامون في النهاية في بيوت أخرى، بعيداً عن وحدتي.

هل كنت أبكي من وحدتي؟ صحيح، هل كنت أبكي؟

حقيقة لا أعرف إن كنت أبكي عزلة الطفل التي قدرت لي، أم أتقبلها بحزن عادي لا يصل حد البكاء، أو حتى بفرح أو بلا مشاعر بالمرة. وكنت سألت أمي مرة، وأنا في الرابعة أو الخامسة، كما أذكر، أن تشتري لي أختاً طويلة الشعر، حتى أقص شعرها، وأخاً كبير الأذنين لأضحك من كبر أذنيه، وألقبه بالحمار، وكنت سمعت ناعسة، بنت الجيران التي تكبرني بعامين، تلقب أخاها بذلك اللقب، وتضحك عالياً، وأرتنا مرة كتلة نحيفة من شعر أسود ناعم، قالت إنها جزته من رأس أختها الصغيرة، وهي نائمة.

في ذلك اليوم رأيت أمي شبه باكية، لم أر دموعاً في الحقيقة، لكني تخيلت دموعاً، وكانت جادة وصارمة إلى أقصى حد، حين جاءت بمقص تستخدمه في ترتيب شعرها، وثيابها، سلمتني إياه، وبركت على الأرض ناثرة شعرها الغزير أمامي، وترجوني أن أقص منه ما أستطيع، ولم أفعل. مؤكد لم أفعل، ولا أعرف السبب، وحاولت مراراً أن أعود إلى أسباب الأطفال في فعل الشيء أو الامتناع عن فعله، علني أعثر على السبب، ولم أستطع.

صرخت أمي بصوتها الأعلى الذي لا يخرج إلا نادراً، وبلغة

أهلها الطليان:

- قصيه... قصيه يا خميلة، أرجوك.

ولم أقصه، ألقيت بالمقص، وفررت إلى غرفتي.

-٢-

لم يكن ميخائيل شاباً، أقصد لم يعد يافعاً يمتلك نسخة من أحلامي أو أحلاماً شبيهة بها، ويمكن أن أرتديها معه، في أي وقت خلال حاضرنا أو مستقبل حياتنا. وأجزم أنه لم يكن وسيما حتى... وبالرغم من دراستي قرابة العام، لعلم الجمال في مصر، وعودتي لأزهو به في مدينة لا تعرفه، ولن تعرفه كما أعتقد، إلا أنني لم أحدد أي معايير أقيس بها وسامة الرجال، مثل شكل الأنف، ولون العينين، وتسريحة الشعر، وتناسق الجسد. وبالرغم من ذلك، بدا ميخائيل لي غير جذاب بصورة كبيرة، وأجزم بأن صاحبات المعايير تلك سيخرجنه من أي سباق قد يخوضه، للفوز بلقاء عاطفي، أو رباط دائم.

كانت قريبتي سمراء، التي تقيم في حي آخر بعيد عن حي "كاهير" الذي نسكنه، ونلتقي أحياناً، قد حدثتني عن تلك المعايير الصعبة، وأنا في السادسة عشرة من عمري، اقترحت أن أجربها في اختياري للرجال، في أي وقت، وذكرت أن أمها لجأت إلى استخدامها في اختيارها لوالدها صانع الأقفال، وهي

لجأت إليها في اختيارها لحبيبها فارس أسد، صاحب محل الحلاقة الأفضل في السور، وكان تعلم قص الشعر من الهنود الجوالين الذين يحطون في المدينة من حين لآخر، وكان مسلماً، لكن ذلك لم يكن عائقاً أمام حبه، وتبادل ساعات رعشة معه، إلى أن حانت لحظة طلب الزواج، فقاما معاً باستعراض مسرحي خاص، ذكر فيه رغبته، وعبرت هي عن موافقتها، وتحدثا عن عائق الدين، فلا هو يستطيع التغيير إلى دينها أبداً، ولا أهلها سيبوافقون على زواجها من صاحب عقيدة أخرى غير المسيحية، وبكيا معاً، ثم افترقا. وحين تزوجت هي بعد ذلك، من قبطي يعمل في متجر للقماش في السوق الكبير، لم أعرف إن كانت قواعدها قد صنفته وسيماً بالفعل، أم مجرد رجل عادي، عاهدها على الإمساك بيدها، وقيادتها في سكة العمر الطويل.

كنت أرى ميخائيل أحياناً، أراه عابراً في طريق أسلكها، أو واقفاً في متجر، أدخله بغرض التسوق أو الفرجة، لكن هناك مرتين لصقت فيهما صورته بذهني، بشدة. مرة حين رأيته، وكان على ظهر جواد أسود مرتفع، وفي يده اليسرى مروحة من القماش الأحمر، المذهب، يهزها بتناغم. كان شعره طويلاً، لكنه مهذب، حذاؤه من جلد بني، بسيور تمتد حتى منتصف الساقين، وقد ترك قميصه مفتوحاً قليلاً، وثمة شعر أسود داكن، يرقد في الصدر، و يتنفس عبر فتحات القميص.

بدا لي أخاذاً في ذلك اليوم، وخارجاً لتوه من قصيدة إغواء، لشاعري الإسباني المفضل رامونا ريماس:

كان خوان نصف قمر،
ونصف شمس إن أردت أيضاً.
كان طويلاً، ربما أطول من التاريخ،
وعميقاً، ربما أعمق من التراث،
وكانت عيناه تشبهان زهرة،
هو يقول ذلك، وتقول الطبيعة: لا
الزهرة هي التي تشبه عينيه،
كان يحمل بعض الرياح الطيبة،
ورمى لي حفنة منها،
ويحمل رسائل الجنود القدامي لحبيباتهم،
وأهداني طريقة كتابتها.
لم يكن بقربنا نهر ليمسك به،
ويهديه إليّ،
ولم تكن ثمة صحراء،
ليلغيها تماماً عن البصر.

نعم، لقد علق بذهني في تلك المرة، وكنت أتوقع أنه تعلق الاضطراب القديم، ذي الرعشات البلهاء الذي يضحكني كلما تذكرته، لكنني الآن أخطو إلى العشرين، وعدت من مصر، أحمل عالماً جميلاً أحاول رسمه هنا، وقد تورد خداي أكثر، والتهبت مشيتي أكثر، وامتلك جسدي شخصية مميزة. وأحمل حقيبة من جلد تمساح حر على كتفي، معبأة بأدوات زينتي، وأحس بأن ثمة حليباً دافئاً مطموراً في صدري، وأستطيع بلا مشقة كبيرة أن أقيم

حواراً بناءً مع القبح، وأقنعه بضرورة أن لا يظل قبحاً.

كانت مدينة السور تقع في غرب البلاد، محاطة بكثير من القرى المبعثرة، وحاضرة لمنطقة ممتدة وغنية، كانت في الحقيقة، ميدان فوضى كبيراً، ولم يعرف أحد أبداً ان هناك علماً للجمال، يدرس بعيداً، ومن أساسياته محاربة الدمامة، والكلام النابي والسيطرة على الفوضى، حتى لو صدرت من حمار مخمور، أو ديك يطارد دجاجة ساعة النزوة.

حاولت مع عدد من السيدات الفوضويات، أن يرتبن ثيابهن، وتسريحات الشعر، وينتقين الزينة بمعايير مناسبة، ومع حمقى أعرفهم جيداً، كي يحاربوا الحماقة وينتصروا، وقلت للسيد مرتضى جول، ذات يوم، وكان تركياً متخصصاً ببيع الماء من آبار جوفية، حفرتها له الدولة المستبدة، وقيل إنه قريب لحاكم السور دامير، وكان يزورنا من حين لآخر، بحكم علاقته بوالدي، قلت له وألاحظ انتفاخ بطنه بصورة غير خلاقة بالمرة:

- علم الجمال يعتبر بطنك ساحة معركة، يتقاتل فيها فارسان شديدان، ومن المفترض أن ينتصر الذي يمحوها تماماً.

كان التركي قاسياً، كعادة الأتراك الذين لازمتهم صفة قمع الدنيا منذ أن عرفوا الدنيا. فلم يتبسم ولم يطالب بأي تفسير لمقولة علم الجمال التي أجزم أنه لم يفهمها، ورماني بكوب من الفخار كان أمامه.

يومها انخدش أنفي الذي لامسه الكوب، ونزّ بعض الدم، وتحطم الكوب الفخاري الهش، بسقوطه على الأرض، وخاصمني

أبي لفترة، نعم صديقي، خاصمني ولم يقل إنه ندم على إرسالي لدراسة علم الجمال، فقط فهمت من وجهه ونظرات عينيه، بأنه قال ذلك في سره.

قلت إن صورة راكب الفرس الطويل، الموصوف بخيال متوهج، في قصيدة ريماس، هزتني، وأظنني ابتسمت أو أشرت بيدي لراكب الفرس، إشارة مشجعة، لأن حزمة ورد أحمر وبنفسجي، لا بد مقتطفة من حديقة عامرة، وصلتني بعد ثلاثة أيام، إلى البيت، ولم يكن مكتوباً عليها أي اسم، ولا تذكّر الذي أحضرها، وكان صبياً من سكان حي أرض الكوثر الشعبي، لماذا أحضرها، ومن طلب منه إحضارها في الأصل.

لقد شممت زهور تلك الباقة بعنف، شممتها، وردةً وردةً، ياسميناً وقرنفلاً وجورياً، وأعدت شمها مرات، كأنني أبحث عن عرق مميز يخص من أرسلها، ربما يكون لاصقاً بها، كأنني أبحث عن شفرة ما، وأتوقع وجودها. وما حيرني حقيقة، أن الزمن في السور كان زمن تخلف، وفوضى، ونزق كثير، وفكرة إرسال باقة ورد لطيف، زاهي الألوان، لفتاة جميلة، لا تبدو مألوفة على الإطلاق، ولا يمكن أن ترد إلى ذهن أكبر عشاق السور ترنحاً، وتعلقاً بمحبوبته.

أظنني بالغت في التفكير وتطرفه، ونسبت هدية الرقي تلك لميخائيل رجائي، جامع الثروات القبطي، لأنني أردته راقياً، ولا أعرف إن كان هكذا بالفعل أم لا. أعرف أن أباه رجائي، كان جامع ثروات قبله، وتقاعد بسبب إصابته بمرض "كلل المخ"،

الذي يسلب المريض حاضره، وماضيه ومستقبله، والآن محروم حتى من ذكرياته البسيطة الحميمة، وأسمع أنه يدور في الشوارع، باحثاً عن إصبعه الذي يوضع فيه خاتم الزواج، ولا يجده. أعرف أمه مريا تومومس، امرأة كالطيف شفافة، ومرهفة، ويمكن أن تقتات من كلمة طيبة فقط. لم تكن من زوار بيتنا حقيقة، لكننا نعرفها.

السور ليست بحراً عميقاً، ولا حبلاً معقداً، ومجتمع الأقباط، يقيد أعضاءه بعضهم إلى بعض.

كان يوجد نادي "يوتوبيا"، النادي الأرستقراطي القديم، الذي أنشئ في زمن بعيد، وكان يجمع من يستطيع دخوله من أهل السور، والأقباط كانوا يدخلون، إما بنفوذهم وثرواتهم الكبيرة، وإما بوظائف يحصلون عليها في المكان، كمحاسبين، وطباخين، وندل، وحتى حارس النادي كان قبطياً اسمه أمير.

المرة الثانية التي شاهدت فيها ميخائيل وامتلأت به، لكن من بعيد أيضاً، كانت في السوق الكبير، وكان كما يبدو ينظم مكاناً مرتباً ونظيفاً لجلوس بائعات الطحين المبعثرات هنا وهناك، ويساعدن في ضخ الثروة أيضاً بضرائب قليلة، تفرض عليهن.

كان ثمة عمال يصنعون مظلة كبيرة من الخشب، وبروش السعف، وتحتها فراغات عريضة تكفي لجلوس جميع النساء في السور، إن فكرن في بيع الطحين. كان يأمر عاملاً بالإسراع في العمل، أو يزجر آخر على وشك أن ينام. ولم يبد لي ذلك العمل، خاصاً بوظيفته، أن يشرف على عمال يعملون، لكني لم أدقق في هذه النقطة.

كان صوته مرتفعاً بعض الشيء، ومألوفاً أيضاً. صوت رجل ربما كان أصم، أو متغطرساً، أو صاحب حرفة تعتمد الصياح، لكنه لم يكن أصم، ولا بدا متغطرساً، ومهنته تعتمد التفكير والحركة، أكثر مما تعتمد إشعال الصوت. شاهدني كما يبدو، وكنت أرتدي فستاناً أسود، مطرزاً بالأحمر والأزرق والذهبي، أنا من اخترع تفاصيله، ومن خاطه ومن طرزه، بإرشادات من علم الجمال، وكثير من الصبر. كان فستاناً رائعاً، وكذا قال ميخائيل، حقيقة لم يقل بلسانه فلم يكن ثمة حوار بيننا أو معرفة موثقة تجعله يطرب للجمال ويتحدث عن طربه، عيناه هما اللتان تحدثتا بوضوح، وأنفه أحمر وأبيض وأحمر، قطعاً من صراع هرمونات عنيف، دار في دمه في تلك اللحظة.

توقف فجأة عن استخدام صوته، وضخ التعليمات للعمال، وتسمر مهلهل الثبات، يتابع مشيتي، وكنت ذاهبة فقط، ذاهبة في أي اتجاه قد تقودني إليه خطواتي، فلم يكن ثمة هدف كبير ولا صغير، في السور، لأحدده وأذهب إليه.

توقفت عند صائغ الملكات، ذلك المحل الذي يملكه إيزاك موسى، وكان يهودياً مؤسساً منذ ولادته لصياغة الذهب، وبيعه، من دون أدنى تعاطف مع الدنيا وتقلباتها. كانت عنده امرأة شابة، وبدينة بعض الشيء، تود بإصرار، شراء أساور من نقشة "الغزال الأحمر"، وكانت من النقشات الجديدة، الرائجة، ولكن غالية الثمن. كانت تحاوره بمجون، وهي تتكئ على طاولة البيع، تحاول زحزحته عن السعر الذي حدده، ولا فائدة، وفي النهاية اضطرت

إلى إخراج عملاتها المطلوبة من حقيبة جلدية كانت تحملها، واستلمت أساورها ملفوفة في قماش حريري أخضر، وذهبت.

كان يوجد في السوق صاغة آخرون بلا شك، وكانت القوافل السيارة بين السور ومصر والسور وعاصمة البلاد البعيدة، والعديد من دول أفريقيا السوداء، تحمل من دم التجارة الكثير، لكن إيزاك وحده من كان مبتكراً حقيقياً، وعنيفاً في ابتكاراته، وله طرق فنية في نقش الذهب لا يعرفها أحد، لدرجة أن كثيرين تعلقوا بالخرافة، وظنوا أن الجن يعمل معه. وأذكر أنني حين ذهبت إلى مصر لدراسة علم الجمال، كنت أحيط معصمي بسوار من نقشته المسماة "بركة القمر"، ولا أدري لمَ بركة القمر وليس بركة الشمس أو بركة النجوم، ولِمَ بركة أصلا؟

شاهدتني نساء من أقارب أبي المصريين، وأقارب أمي الطلاينة صادفتهن في مصر تلك الأيام، وانبهرن من ملاحة تلك الأسورة، وبثها للشغف غير المحدود. قلت لهن إنها نقشة "بركة القمر"، ودوّنّ الاسم ليسألن عنها هنا وهناك، ولم تكن موجودة في الحقيقة إلا عند مبتكرها إيزاك.

كان إيزاك يملك صلفاً مزمناً، ورأسه مرفوعة دائماً، ولا يحدث زبائنه من النساء أو الرجال، إلا وغليون بنيّ مذهب، محشو بتبغ "الدردار" الخشن، غير مشتعل في الغالب، يتحرك بين شفتيه. لم يكن لديه أبناء، وقيل بكى زوجته أم إيليا التي انتحرت بالسم منذ سنوات، لسبب بسيط تافه، هو أن الزوج عاتبها على استهلاك الماء في الاستحمام، حيث كانت تستحم كل أسبوع مرة. بكاها بدموع

كان نصفها دماً، لكن أحداً لم يوثق تلك الدموع، ولم يستطع كل من يعرفه أن يؤكد، أن له دموعاً سالت بالفعل من عينيه الصغيرتين، اللامعتين، وهم يدفنون الزوجة أم إيليا، في مقبرة حاييم الخاصة بالموتى اليهود.

إيزاك كان يعرفني بالطبع، ولم تكن تجمعه بوالدي صداقة خاصة، بعيداً عن زمالة العمل في السوق، بعكس فندوري، تاجر الخمور اليوناني الذي كان صديقاً للعائلة، وحبيباً موقتاً، ارتعشت أمامه أيام اضطراب عواطفي المضحك، وكان وقتها في السبعين، وابنته صديقتي...

كنت أتجول بعيني، بلا تركيز، في بضاعة إيزاك المرصوصة على طاولة مغطاة بالزجاج المصقول، وأحس أن ثمة أربع عيون تلحسني، وتكاد تذيبني، عينا تاجر الذهب، الذي يتوقع أن تشتري بنت تاجر الذرة، ترفاً جديداً من عنده، وعينا واحد آخر، ربما كان ميخائيل رجائي، جامع الثروات، وقد ترك انشغاله، وتبعني إلى محل إيزاك، أو مجرد متشرد، من الذين تمتلئ بهم السور، يمتع عينيه بظهر فتاة راقية، داخل فستان شديد الرقي.

رفعت عينيّ بغتةً، كانت عينا إيزاك اليهودي في المكان الذي قدرته تماما، داخل طاولة الذهب، ترصدان سقوط نظراتي.

التفتّ إلى الخلف في حركة مباغتة، وكان ثمة خيال مألوف لرجل، اختفى سريعاً.

لقد علق ميخائيل رجائي، ببهرجتي كما يبدو، وأحس بأنني قد أعلق في حبه أيضاً، أو لعلي علقت بالفعل، ولا أقرّ بذلك.

في ذلك المساء، كنت سخيفة للغاية، ربما كنت مرتبكة، وأسمى الارتباك سخافة، من دون وجه حق. أوقدت فوانيس غرفتي الخمسة كلها، وجلست أحصي ما ردمتني به الذاكرة من عدد الرجال الذين طرقوا الباب، طلباً للزواج، تلك الأشهر التي أعقبت عودتي من مصر، ولم أقبل حتى بمعرفة أسمائهم ووظائفهم، ولا تنازل أبي عن ودّه وابتسامته، أو أحس بأنني سيئة. فكرت أن ميخائيل ربما كان منهم، واستبعدت ذلك سريعاً، فلن يطرق جامع الثروات المعروف في المنطقة، بابي، ولا يوضح والدي أنه طرق على الأقل. أغلب الظن أن من جاءوا كانوا مجرد طامحين فقراء، أو لصوص جمال، فكروا في سرقة جمال زهرة، ونحّاهم أبي من دون تفاصيل.

قلت لمارتا صامويل، وكانت قبطية عجوزاً تمرّ على بيتنا من حين لآخر، وتنفق وقتاً طويلاً، وهي تفاخر بعيالها الذين فروا من السور، وتركوها أرملة بلا مورد، ليتكفل عدد من أقباط المدينة بنفقاتها القليلة، أو تخدم في البيوت كطباخة وغاسلة للثياب، بأجر، كما هو الحال عندنا. قلت لها:

- هل سبق أن أحبك رجل، وبادلته الحب... يا مارتا؟

كانت مارتا من جيل قديم حقاً، ولم تكن تعرف عن الرجال، باستثناء أبنائها طبعاً، سوى أنهم أصحاب تواريخ مثقلة بالخطايا، ولن تكفي كنائس الأرض كلها، إن بركوا فيها، لغسل تلك الخطايا. وتعرف على وجه خاص، أن يعقوب نوفو، زوجها المتوفى منذ عشرين عاماً، إثر رفسة حمار غاضب، صادفت أحشاءه، ونخرتها، كان بذيئاً، وخائناً وأوشك في أحد الأيام أن يبيعها لرب قافلة تجارية

مرت بالسور بحثاً عن الرقيق، لولا أن تنبه رب القافلة، إلى خاتم زواجها، ويعقوب يعد دنانير سعرها، ومن ثم توقف إتمام البيع.

كان أبناؤها الثلاثة، الذين أنجبتهم في السنوات الأولى من زواجها، صبياناً ملوثين بأفكار غريبة، ويستخدمون كلاماً لا يعرفه الناس في الغالب، يرددون عبارات مثل: سياسة التهميش، والبعد عن المركز، واستغلال الثروات، والتفرقة العنصرية، وعدم المواكبة، واختفوا فجأة ذات يوم، إلى حيث لا يعرف أحد، وما تزال هي تبكي، وتفاخر بأنهم عيال أسود، وعيال الآخرين مجرد نعاج.

قالت: لا، بكل اختصار ومسكنة. لا، ولم تزد...

كانت تفرد شعرها الأحمر بفعل الحناء، وتعيد تمشيطه، وأمامها كوب شاي، لم أتركها ترشفه وهو ساخن، ولم أتركها تنام كذلك، وكان قرارها في ذلك اليوم أن تنام معي.

جلست لأيام، أتوقع قدوم ميخائيل، أو أمه مريا، وأعرف أن أباه لن يستطيع أن يبدو أباً معقولاً إذا ما تمّ اقتياده في زيارة تعمق للعلاقة بين عائلتينا، مع احتمال المصاهرة مستقبلاً، وأن أخاه الأصغر رزق، غير موجود في السور، تلك الأيام، حيث يتلقى تدريباً عسكريا في معسكر في الضواحي، بعد انضمامه لسلك الجيش.

ربما مضى شهر أو لعله أكثر من شهر، أو أقل، ولم أصادف ميخائيل في أي درب في السور طرقته عن قصد أو غير قصد، أماكن تجميع الثروات في السوق الكبير، أو سوق أبي جهل الشعبي، أماكن توزيع اللبن، وبيع البرسيم ومستلزمات الدواب الأخرى

من قصب يابس وسروج وبرادع، وبالغت في لهفتي، لدرجة أنني اقتربت في أحد الأيام، من حي ونسة المختص بتجارة الجسد، لعل جامع الثروات يكون في مهمة هناك. كنت على ظهر فرسي الأليفة شهرزاد، وأغطي وجهي، لكنني لم أدخل. كانت ركبتاي ترتعشان وألمح من بعيد رجالاً ضامرين، ومحنيي الظهور، يقفون في صفوف، قطعاً تؤدي في النهاية لأحضان النساء التعسات. فررت سريعاً، وخفت أن يكون هناك من عرفني، أو عرف فرسي، وينقل معرفته لأبي وأُسأل.

لم يكن أبي وبرغم صداقته القوية لي، يتوقع أن أسقط وأنا ناضجة في ارتباك جديد، وأقصى ما يتوقعه أن أبتسم لشخص أحببت وجهه، أو أمد يدي وأمررها على جسد حصانه، أو لا أفعل أي شيء سوى الاستحمام بالماء المعطر، والتسكع في ممرات البيت والجلوس ساعات، أخيط الثياب الراقية، ممتلئة بنصائح علم الجمال الذي درسته، أو أقرأ الكتب الفلسفية، والروايات الغامضة، وقصائد شاعري ريماس.

كان ريماس مجنوناً بلا شك، وما يكتبه يشبه مزاجي ورغباتي النارية، بصورة مرعبة. كنت أحاول أن أشم قصائده، أتذوق طعمها، أمرر أصابع لهفتي، على أماكن اللذة فيها، ودائماً ما أنتشي. رددت في نفسي قصيدته: دمج ودمج آخر، ربما عشرين مرة في تلك الأيام، كانت في الواقع عن حبيبة تنتظر:

هل تعرف يا خوان؟
هل تريد أن تعرف حقاً،

أن ذاكرتي لم تعد
مخزنك الرسمي؟
وقلبي لم يعد البئر التي تمدك بالعسل وأنت
نائم، أو تخيم في غابة، أو تعيد تشكيل تذوقك
لتبدو ملاكاً؟
وأنني صرت منذ اليوم أنت؟
بمعنى أن ذاكرتك صارت مخزنك الرسمي،
وقلبك بئر عسلك،
وأشياء عندي هي أشياء عندك،
وكلما فتحت نافذتي، انفتحت نافذتك؟
وسقطت دمعة مني، انحفر خدك؟
ماذا تنتظر يا خوان؟
هل أنتحر؟ قصدي: ننتحر؟
أم أخطو إلى بيتك... بيتي؟

-٣-

أظنه عيد الفصح، الذي نداوم على الاحتفال به كل عام، بوصفنا أقباطاً متمسكين بأفراحنا وأتراحنا معا، أو لعله ليس عيد الفصح، بل مجرد يوم عادي من أيام السنة، قرر فيه باسيلي أكرم أن يتزوج، وأن تقام طقوس زواجه المرتقب، على مسرح نادي يوتوبيا المقدس عند الأرستقراطيين، والمذموم بشدة عند الفقراء والشعبيين بوصفه نادياً أنانياً محبطاً، لا يسمح بتوفر العدالة، ولن يسمح بها في يوم من الأيام.

كان باسيلي قبطياً مميزاً في مدينة السور، كان في منتصف الأربعينات، وعاد إلى السور منذ أربعة أعوام فقط، بعد سنين طويلة قضاها في انكلترا، كما ذكر، ولم يكن أحد من الذين عاصروا هجرته وأسبابها، التي أهمها، موت والده تاجر القماش، مقتولاً، وفرار فتاة قبطية كان يحبها، مع عازف ناي هندي جوال، حط في السور ذات يوم، يظن أنه سيعود مرة أخرى.

كان مفكراً ومؤلفاً للكتب الفلسفية، وعاشقاً للضوء والحرية، كما يصف نفسه، في الجلسات الودية التي تجمعه بأصدقائه، وله

كتاب اسمه السماء تناديني، ألفه عن الطغيان المسيحي في القرون الوسطى، مع مقارنة ما يحدث الآن، من فوضى في تلقي الأديان كلها، وتطبيقها، في نهاية القرن التاسع عشر، الذي نعتبره برغم الظلمات كلها، عصر إنارة وعلم، وحدثت فيه بعض الاكتشافات التي قد تغير العالم. ولعل أفضل ما أنجزه باسيلي، بعد عودته، هو إنشاؤه لمكتبة السور الوطنية، ودعمها بمئات الكتب التي أحضرها، ويجددها باستمرار، بطلبات تحملها القوافل القادمة إلى السور، وجعله تلك المكتبة متاحة لكل من أراد أن يتعلم.

كان حدثاً لافتاً فعلاً، أن يقرر باسيلي الذي يقيم مع أمه العجوز الثرية في حي لونا وراجيف، فجأةً، أن يتزوج. وبعد سنوات طويلة من الزهد في المرأة، فلم يكن معروفاً بأي تطلعات شبقية، أو مغامرات نسائية، ولا شاهده أحد مع امرأة غير أمه العجوز، بعد عودته من الهجرة، قطّ.

كانت المفاجأة الأكبر، في الزوجة التي اختارها، ولم يتوقع أحد ذلك الاختيار قطّ. كانت هندية، بوذية، لا يعرفها إلا قليلون في السور، بحكم عزلة اتخذتها منذ سنوات، أو لعلها كانت أصلاً في عزلة، منذ ولدت، فلم أكن متأكدة.

كان اسمها أمبيكا بسواس، وقيل مؤلفة كتب فكرية أيضاً، لكنها ليست في ذكاء باسيلي، وحكمته، ولا كان لها كتاب معروف، قرأه أحد. وذكر هندي عجوز، اسمه راجور راجو، ويبيع حلوى النارجيل اللينة، والفول المحمص، في الشوارع، أن أمبيكا بسواس، كانت منذ عشرة أعوام، ملكة جمال متوجة في محيط

ضيق جداً، هو بيت أسرتها الذي يضم أباها وأمها وأخاها الصغير، إضافة إلى ثلاثة من بيوت الجيران، بها فتيات صغيرات جميلات.

لم تكن تلك المسابقة المضحكة، التي انتشرت قصتها بسرعة في المدينة، مهمة، قطعاً ولا كانت تساؤلاتنا عن كيفية تلاقي هذين المتقاربين فكرياً، والمتنافرين دينياً، أصلاً، مهمة... المهم أننا سنشهد عرساً قبطياً بوذياً، وقطعاً فيه تغيير كبير لروتين المغص والاكتئاب، في مدينة بعيدة، بلا أدوات ترفيه، كالسور.

في الحقيقة، لم تكن الديانة البوذية في مدينة السور، وضواحيها من المدن الصغيرة والقرى، ديانة كبرى أو ذات وقع راسخ، كالإسلام السائد في المكان بشدة، والمسيحية التي يدين بها كثيرون كالأقباط وبعض المهاجرين القدامى، من شتى بقاع الأرض، واليهودية التي ما زالت موجودة إلى حد ما. في الواقع، لم تكن البوذية حتى ملاحظة من قبل الآخرين بسبب عدم توفر معابد كبيرة ومزخرفة تلفت النظر، وانعدام الثقة في الكاهن بودا المستنير نفسه، بعد قرون من إرسائه لتعاليم دينه، انعدام الثقة الذي كان يلازم الأجيال الجديدة، من أصحاب تلك الديانة. وأخبرتني مرة ناهوما آبرهام وكانت فتاة جميلة ومزعجة في الوقت نفسه، وتسكن بالقرب منا، في حي كاهير، أنها ما عادت تهتم بكاهن أهلها ولا آثاره، وليذهب إلى الجحيم. وقد تعمدت أن تترك أخاها الصغير يعبث بتماثيله الخشبية، الموجودة في غرفة نومها، حيث كسر عدة أذرع وسيقان، وطمس العيون أيضاً...

أظنه الفضول، أو لعله المغص الشديد، ما دفع الفتيات اللائي

يعرفن باسيلي، وثروته، ويتقن إلى وصال رجل مثله، خاصة القبطيات اللائي تأخرن عن الزواج، أو أوشكن أن يتأخرن، أن ينقبن حي لونا وراجيف، بحثاً عن العروس أمبيكا بسواس، قبل موعد زفافها إلى باسيلي بشهرين كاملين، وبمجرد أن أعلن خطبته وأذاعتها أمه العجوز للناس.مكتبة الرمحي أحمد

كانت العروس المفترضة، غائبة عن طقس الخطوبة الذي أقيم ببساطة شديدة، داخل بيت الأم، لدرجة أن نساء من عائلة باسيلي وأقاربه اللصيقين، ظنوا المسألة طقس مزاح أو مقلباً مدبراً، بغرض التسلية، ما يلبث أن ينكشف. وعثرت عدد من القبطيات المتجولات في الحي الراقي، على عشرات البوذيات الرائعات، النظيفات، اللائي يمكن أن يكنّ أمبيكا السارقة لقلب القبطي المتوسط العمر، ولم يعرفن أيهنّ هي.

كان باسيلي، كما أشيع، يشاهد كثيراً، في السور تلك الأيام. كان منشرحاً، وأنيقاً بشعره الكثيف الأبيض، يمازح الناس، وينشد شعراً عاطفياً للإنكليزي ستيورات جون، وأعدّ سراويله السوداء، وقمصانه المزركشة، وطربوش عرسه الأحمر، عند أفضل مصممين في السوق الكبير. وشوهد فستان أبيض قصير الكمّين عند خياط النساء الأعظم إسرافيل، الذي لا يعرف أحد أصله، ولا ديانته، وصادف أن وُجد في مدينة السور، هكذا خياطاً عظيماً بلا زيادة ولا نقصان.

كانوا يسألونه عن أمبيكا، باستمرار، فيبتسم أو يضحك أو يلهو بخيوط الحرير يضفرها بعضها ببعض.

كنا مدعوين إلى العرس المتميز في نادي يوتوبيا كما ذكرت. لن أنعته بالسخيف، المتحجر العواطف، هذه المرة، ولن ألوي حنكي تقززاً وأنا أشاهد طاولاته الخضراء المرصوصة باستفزاز وغطرسة، وأسمع قهقة شاغليها المنشرحين، وهم يتحدثون في المال والسياسة، ويتبادلون الأنخاب في صحة بوذا والمسيح. وسأصعد إلى مسرحه الذي حتماً سيزركش بكل شقاوات الاحتفالات، وأدوات فخرها، وأقدم التهنئة لباسيلي وعروسه الشبحية، إن تنازلت عن شبحيتها، وأتت لتحضر عرسها.

كان ثمة أمل كبير أن تتحقق أمنية، هي الأهم عندي والأفضل حتى من العرس نفسه، ومغنّيه، وأغنياتهم المكررة ، وهي أن يحضر ميخائيل.

أنا علقت بميخائيل رجائي، هذه حقيقة لن تحتمل غيرها، علقت به وأنا في قمة نضجي الجسدي والعاطفي، والعقلي أيضاً. فساتيني طويلة ومحتشمة، إلا من بعض فتحات الإغواء العادية، الضرورية للأنثى. شعري جميل، مرتب ومزخرف بعناية، وملفوف بالأشرطة، وعندي أطواق ملونة أضعها عليه وأستبدلها بحسب المزاج. وجلستي في أي مكان، أضطر للجلوس فيه، جلسة امرأة لها كيان واضح غير مهتز. ليأت ميخائيل، ويجلس بجانبي إن أراد، وإن لم يفعل ذهبت إليه من دون إحساس بالحرج. هذا من علامات ثبات العقل بلا شك. العرس القبطي- البوذي، ليس عرس تزمّت، بأي حال من الأحوال، ولا يوجد ما يمنع خلط العواطف بعضها ببعض، وجلوس الحملان، تحت مظلة الذئاب.

كنت أضحك من ذلك التشبيه، وأتمنى أن لا أكون حملاً، ولا يكون ميخائيل ذئباً. لكن نحن الإثنان حملين، هكذا أفضل.

تلك الأيام بالذات، بدأت أمي تحس بأعراض غريبة، وجديدة على شكاواها المتعددة التي ترددها باستمرار، وأعرفها منذ وعيت: صداع يمسك بالعين، ونصف الوجه، ويزداد دائماً في الليل. انتفاخ في الأمعاء، استفراغ متكرر خاصة في الصباح. كانت تردد هذه المرة، أن ظهرها يتكسر يومياً إلى قطع صغيرة، تستطيع أن تمسكها بيدها، ويلتم بعد ذلك، مرة أخرى.

كانت تبدو محنية الظهر بصفة شبه دائمة، وقد تقلص وجهها الطلياني الصغير، وضاع كثير من ملاحتها القديمة، ولم تكن تسمح لأحد أن يلمس ظهرها قطّ...

أزعجتني تلك الأعراض بشدة، أزعجت آخرين يحبون أمي، بصوتها الهادئ، وكلامها القليل المتأني، من أهلنا ومعارفنا اللصيقين، في مدينة السور، وبدا أبي برغم ما أعرفه من حب مجنون لها جرجرها به من وطن بعيد إلى وطن بعيد آخر، عادياً جداً، يمارس تجارة بيع الذرة، يومياً، في السوق، بلا انقطاع ويعود إلى البيت، يسأل عن أخبارها باختصار، وينزوي في غرفة أخرى من غرف البيت الكبير.

كان يفكر في الوهم كما أخبرني مراراً، وأن أمي ضحية وسواس قهري مشؤوم، تمكن منها، وليس من السهل اقتلاعه.

كان قد بيّن وجهة نظره هذه لأمي أيضاً، بيّنها لكل من سأل، وكل من تأثر، وسمح لعدد كبير من حكماء مدينة السور، وضواحيها،

أن يدخلوا البيت، حاملين أخبار نجاحاتهم العديدة، والكثير من البذور اللينة واليابسة، وأوراق الأشجار ولحاها وجذوعها، وبخوراً متعدد الروائح، يجلب الغثيان، اسمه روطة، قيل هو خلاصة نبات نادر. لكنّ شيئاً لم يتغير في شكوى الظهر الذي يتمزق إلى قطع، ويلتم. وفكرنا كلانا، أبي وأنا، بإرسالها إلى العاصمة، عند عمي طانيوس، الذي هجر السور منذ عشرة أعوام، ويتاجر الآن في الفول والسمسم وزيت عباد الشمس، وأصبح له اسم كبير وخطير، ولم تعارض أمي، وجدتها فرصة ليشاهدها أكبر عدد من حكماء العاصمة، ويرمموا ظهرها.

كان عرس باسيلي أكرم، قد اقترب كثيراً، ورجوت أمي أن تحضره معي قبل السفر. وأحس بداخلي، أن ثمة شيئاً سيحدث، لا أدري إن كان خيراً أم شراً، لكنه سيحدث. كنت أستعرض أحداثاً عادية، وغير عادية يحتمل وقوعها في أي وقت وأحاول أن أنتقي منها ما أتوقعه سيحدث قبل أن تغادر أمي مدينة السور. أحداثاً مثل: غارات نهب محدودة لمخازن السلع الغذائية يقوم بها أعراب الضواحي بين حين وآخر، وتطاردهم السلطة وتسترد ما نهبوه. قدوم قافلة من مصر، أو إحدى بلدان أفريقيا، فيها أحذية وملابس جديدة. ثورة صغيرة، في بركان "شقلب" الموجود على مقربة من السور، وتحدث كل عامين أو ثلاثة. وصول الببغاء ذي اللونين الأصفر والبرتقالي الذي شاهدت شبيهاً له في بيت صديقتي ماريكار فندوري، وطلبته من أبي الذي أرسل لإحضاره من بعيد. مثلاً... ظهور ميخائيل رجائي، جامع الثروات اللطيف، في حياتي

الواقعية بعنف. مثلاً مثلاً مثلاً...

عضضت على الاحتمال الأخير ولم أرد أن أفلته، وأنا وأمي أنيقتان، ورائعتان في فستانين ملونين، ونضع قطرات من عطر "هابي دريمز" المستورد، نتوجه بعربتنا التي يجرها حصانان قويان، إلى نادي يوتوبيا.

كنت سعيدة بنشاط أمي الموقت ونسيانها أعراض تمزق الظهر، إنه الفرح بالفرح بلا شك.

– تشكين من شيء الآن أمي فاليرينا؟

أسألها

– لا... أنا بخير... بخير. شكراً.

– تشكين من شيء حبيبتي فالي؟

يسألها جماري الزعيم، أبي الذي كان يودعنا ونحن ننطلق، لن يذهب للعرس ولكن يبدي بعض القلق.

– لا... سيدي، بخير، شكراً لك.

تقول له سيدي، ولا أستطيع الفهم، أو التوقف عن إبداء الاستياء، كلما سمعت تلك الكلمة.

كيف يصبح ما بين الحبيبين، حباً، وهناك سيادة ما يملكها طرف، هو الرجل، ضد طرف آخر، هو المرأة؟ أكيد، هو الزمن البعيد غير المتحضر، من يوقف المرأة في آخر الصف، وعلينا تعديله بأي طريقة، ولا أدري إن تزوجت ميخائيل أو غيره، هل سيقول حبيبتي، وأقول سيدي؟

لا أعتقد... المحب... حتى لو صيّره المجتمع سيداً على

محبوبه، عليه أن لا يخضع، بل عليه أن يصبح خادماً في كثير من الأحيان.

كان يوجد في مدينة السور، مغنون كثيرون يمكنهم أن يقيموا عرساً، أو يساهموا في إيقاد الفرح في حالات ضرورة إيقاده، مثل مناسبات الختان، والأعياد الدينية والوطنية، والعودة من السفر للمترفين الذين يحتفلون بمناسبة كهذه.

كان جريح أسعدين، أو جريح سمراية، في إحالة فاضحة إلى امرأة من نساء البادية اسمها سمراية كان يطاردها بالعشق والغزل المجنون، المتهافت، سنوات طويلة، حتى ماتت، مشهوراً جداً. كان في نحو الستين، طويلاً ونحيفاً، وله عين مطفأة من جراء إصابتها بغصن شجرة جاف. كان سيئ الطبع إلى أقصى حد، وغريب الطلبات، بحيث يمكنه أن يطلب إحضار قطط متعددة الألوان، لتشارك في الرقص، أو ذئب حيّ، عالي الصوت، ليعوي في فقرة من فقرات أغنياته، أو عدد من العجائز النمّامات، ليقمن بطقس النميمة أثناء الغناء، أو مجموعة من الفتيان الأقوياء ليجعل من سواعدهم منصة حية، يجلس على نبضها، ويغني. وفي إحدى المرات، غنى على مسرح مشيد من الطين الرخو، وكان غاطساً في الطين حتى نصفه. لكني كنت واثقة أن عائلة باسيلي ستأتي به، فقد كان برغم بذاءته كلها، قد دخل طقوس التفاخر من دون غيره من المغنين.

كان طرطور القبطي، الذي لم يعد أحد يذكر اسمه الحقيقي، مشهوراً إلى حد ما. كان عجوزاً في الثمانين، وقد اكتسب

تلك الشهرة، من غنائه للأدوار المصرية الصعبة، والموشحات الأندلسية، التي لا يفهم الكثيرون ماذا تعني، لكنهم يطربون لها، وقيل تعلم تلك الأغنيات، من فرقة "أباطرة القلوب"، التي كانت فرقة جوالة من المغنين المصريين والشاميين، أقامت في السور شهوراً عدة، في سنة من السنوات، ثم رحلت.

لم أكن متأكدة إن كان ثمة مغن بوذي أو هندوسي، أو شيطان رجيم، موجوداً في مدينة السور، فلم يحدث أن حضرت عرساً لتلك العائلات شبه المنغلقة على نفسها قطّ، لكن كان ثمة أغنية بوذية اسمها "تلك الأحاسيس البراقة"، تتحدث عن الرهبنة، وعشق الروح، معروفة في المدينة، وتردد في الأعراس كلها بلا استثناء، وحتى في أعراس المسلمين، من دون أن يدقق أحد في مفرداتها.

في نادي يوتوبيا، كانت الأمور كما قدرت بعضها، وأخفقت في تقدير البعض الآخر. النادي مزين بالورد الأحمر، والفوانيس الملونة، وحارسه أمير ترمبيز، القبطي العجوز، يبدو أنيقاً في ملابس بيضاء ناصعة، ويقف بنشاط عند الباب، ينحني للمدعوين كلهم، وبجانبه ابنه توما، الذي يقود الدواب ليربطها في الحظيرة الملحقة بالنادي، ويسلمها لأصحابها عند انصرافهم.

كان توما ولداً مراهقاً، طويلاً بعض الشيء، ويبدو خجولاً للوهلة الأولى، حين تسقط عليه نظرة ما، لكن قطعاً لم يكن كذلك. كنت ما أزال صغيرة، وربما غير معتادة كثيراً على جرم النظرات واتساخها، وما تحمله من رغبات جنسية صريحة، لكني ومن أول مرة شاهدت فيها توما، وتعرفت إلى وجهه، عرفت بأنه صياد أحلام

وغدة، لا بد أنا من مكوناتها. أنا وغيري من البنات الرائعات، أو حتى النساء المسنات والبشعات، اللائي يصادف مرورهنّ بقربه في أي مكان. وكم من مرة أحسست وأنا أعبر بجانبه أثناء دخولي النادي، أو أسلمه فرسي ليربطها في الحظيرة الملحقة، أو مصادفة في السوق، أن حبلاً غليظاً من شهوة شاب قوي، امتد من أسفل سراويله، حتى عندي، أو من أعمق عينيه، لأماكن مخبأة، ومغطاة جيداً، في جسدي... لم أكن أحب هذا الولد، وتمنيت لو أن كل امرأة لا تحبه مثلي.

تجاوزت الباب ببطء شديد، بسبب أنني كنت أسند أمي، ودخلنا إلى المسرح المزركش، حيث جريح سمراية، وفرقته كما قدرت، يمتلكون تلك الفقرة. كان جريح يغني "يا مسافرين... عودوا"، وكلبان بنيّان، مدربان جيداً، يمارسان الرقص بكل رشاقة، وسط اندهاش الحاضرين، وطربهم، وطرطور القبطي، يمرن صوته على آلة "الكداديس" المحلية التي يستخدمها. كان يستعد لغناء موشحاته الأندلسية، بلا شك، والعروسان جالسان على مسرح العرس: باسيلي وسيم جداً بشعره الأبيض الكثيف الذي يتدلى حتى كتفيه، وأمبيكا البوذية، التي كانت مفاجأة بالفعل، لي ولا بد لكل من حضر في ذلك اليوم، ولم يكن رآها من قبل...

كانت أجمل امرأة رأيتها في حياتي، نعم... نعم... أجمل امرأة،

كان ثمة خلق كثير، معظمهم من الأقباط وثمة مسلمون بعائلاتهم، لا بد يعرفهم باسيلي، بحكم معرفته بكثير من وجهاء المدينة، وبالطبع بعض اليهود، والبوذيين الذين لن يتركوا عرساً

نادراً، وغريباً كهذا، يحدث من دون أن يطلعوا على محتوياته.

شاهدت العم مفكر فندوري، وزوجته كاميليا، يمشيان ببطء بسبب مسكنة العمر الهرم، تتبعهما الإبنة ماريكار التي كانت صديقتي المقربة. شاهدت إيزاك موسى، صائغ الذهب، ويبدو مكبلاً بثوب أسود جنائزي، غالباً ما يدخره للمناسبات، السعيدة والحزينة على حد سواء. شاهدت الحاكم دامير وزوجته التركية أصالة، وعبيد المشاء، ناقل الرسائل المعروف، بين السور وغيرها من المدن، وكان تقاعد منذ عامين، ويغشى الأعراس كلها، ليسرد بعض مغامراته، إن عثر على فرصة. شاهدت ولهان الخمري، قوّاد حي ونسة، الذي تعرفه السور كلها، يتحاوم من بعيد بجسده المائع الضخم. شاهدت فتيات في عمري أعرف بعضهن ولا أعرف البعض الآخر، وأمهات وقورات جامدات، وأخريات امتلأن بالزينة والمرح. وغازلني الشاعر مسمى طاؤوس، وكان من شخصيات الأقباط المنتشرة بركاكة في مجتمع السور. لم أحب قصائده على الإطلاق، ولا أحببت وجهه المتورم بالشحم، وجسده القصير، المتورم أيضاً، وعرفت مؤخراً أنه من أقارب ميخائيل، ولم يغير ذلك شيئاً من عدم محبتي له، وكنت كلما لمحته في أي وقت، أتذكر أن أبي تحدث عنه بمغص مرات عدة، ووصفه بالمسيحي السالب، في مدينة معظم مسيحييها، موجبون.

كان يبدو سكراناً، بعرق أخرق، وغازلني بعينه اليسرى، وابتسم، ولم أرد أن أثير لغطاً في مكان ضاج بالفرح، وتوابع الفرح. أدرت وجهي عن وجهه، وتلفت أبحث عن أمل، أو أمنية ربما تتحقق...

كان جريح ما زال يغني والكلبان البنيان يرقصان، وصعدت فتاة في حوالي الثانية عشرة، مليحة وجريئة، انضمت للرقص وسط الكلبين.

فجأة وقبل أن أخطو أي خطوات أخرى، كأن أجلس، وأجلس أمي، في مكان جيد، أو أسندها لنصعد إلى المسرح لتقديم التهنئة للعروسين، ظهر احتمالي الذي عضضت عليه، وتمنيت أن يحدث. ظهر ميخائيل رجائي ظهوراً مبجلاً، وكبيراً... لم يتردد على الإطلاق، واتجه نحونا مباشرة، أمسك بيد أمي، أجلسها على مقعد واسع، في صدر المكان، وردد وهو يبتسم في وجهي، وكانت ابتسامته جيدة، وأسنانه بيضاء كاملة، وما زال شاربه أسود غزيراً، وطربوشه جديداً ويلمع، ولا بدا متوتراً أو متعجلاً، أو يفكر في ما سيقوله لي:

- مساء الخير... هل تتزوجينني يا خميلة جماري عازر؟

في اليوم التالي مباشرة، زارتنا أسرة ميخائيل، في بيتنا. كانت الأسرة كلها، الأم، مريا تُوموس، والابن الصغير المتدرب في معسكر الجيش، رزق رجائي، والأب الذي جعلوه أنيقاً جداً، وحبسوه في لباس من قماش التيترون الأبيض، وعمامة ناصعة مطرزة الأطراف، مما يمثل الزي الوطني للبلاد الذي يرتديه كل الناس، حتى الوثنيين حاملي نهج المستنير، بودا، شبه المنقرض في مدينة السور، وكان الرحالة والمستكشفون والسياح، الذين يزورون المنطقة باستمرار، راكبين القوافل، وبعض المغامرين الباحثين عن عوالم طازجة من أجل تأليف الكتب، أو تجميع

الذكريات، يتأثرون سريعاً بذلك الزي، يرتدونه بمجرد ملامستهم لبلادنا، وبتشجيع من الوطنيين أنفسهم، وكنت أستسخف ذلك، أراه محاكاة غير ملائمة، وأتذكر المثل الذي أعرفه من التراث: "ما أقبح السرج حين يوضع على ظهر بقرة"

كان ميخائيل ثابتاً، وأنيقاً كعادته، في الزي الإفرنجي الكامل، وعلى رأسه الطربوش الأحمر، ومريا توموس شفافة، ورقيقة كعادتها، وتتحدث كأنها تبكي. الإبن العسكري يبدو متعجلاً، ليلحق بمعسكره البعيد، وكان سيذهب مباشرة، من بيتنا. والأب، جامع الثروات القديم، يده اليسرى أمام عينيه، لا تنزل أبداً. كان يبحث عن إصبع خاتم الزواج ولا يجده.

كنت أجلس بقرب أمي، وكان أبي يواجهني في الجانب الآخر من صالوننا الكبير، المفروش بمقاعد من الخشب الصلد، صيغت بخبرة جيدة من نجارين نثق فيهم. ولم يكن ثمة شخص غريب أو قريب، ذلك أننا ظننا تلك الزيارة، للتعارف فقط، لكنها انقلبت إلى مقدمات خطوبة، سيقام طقسها قريباً في نادي يوتوبيا نفسه، حيث تجرأ ميخائيل وطلب الزواج مباشرة، من دون أيّ تدرج في العلاقة، وحقيقة من قبل أن تبدأ.

-٤-

إنه شهر نوفمبر، أحد الشهور الجيدة نسبياً، في مدينة معظم أشهرها ليست جيدة، ولا حتى مقبولة، على الإطلاق. توجد أشهر لظهور الملل، والاكتئاب، والوساوس المختلفة، وأشهر يتكاثر فيها الذباب، والقمل والمرض، وينتشر داء "البرقة" الذي يسبب التعب وتلاشي الهمة، وفقدان البصر، وأحياناً الموت، من طول ساعات النوم. وقيل إن أهم أسبابه، كثرة الفواحش، لكنني أعرف أشخاصاً أصيبوا به، ولم يرتكبوا فاحشة في حياتهم قطّ. وكل من يعرف القس طوني، الملقب بأبينا العفريت، أحد رعاة شؤون النصارى في السور، الذي أوشك أن يموت بداء البرقة، منذ ثلاثة أعوام، والشيخ جحفل، مؤذن مسجد السور الكبير، الذي مات بالفعل من المرض، العام الماضي، لا بد سيلغي مسألة الفواحش من تلك الأسباب، أو لن يجعلها سبباً رئيسياً.

كان نوفمبر، هو شهر بناء المحبة، كما يطلق عليه، وثمة اعتقاد موروث عند أهل المدينة، لا يعرف من رسخه في الأذهان، وحوّله

إلى اعتقاد رسمي يضخ للأجيال كلها، أن نوفمبر هذا، روماني قديم، سمي الشهر باسمه، وكان اشتهر بالحكمة، والكرم، والسعي بين الناس يحمل عطراً اسمه المحبة، كان يصنعه من طحن عدد من النباتات العطرية، وخلط المسحوق بقطرات من عرقه الخاص.

لم أكن حقيقة مؤمنة بأسطورة الرجل الكريم، ذي العطر المخلوط بالعرق، التي لا تستند إلى أي نص تاريخي، أو بحث جاد، ولا حتى خيال خصب، من ذلك الذي يخترع الأكاذيب، ويرسخها، لكن التقليد في حد ذاته، كان لطيفاً في رأيي، وأحببته.

كانت تجارة النباتات العطرية، المطحونة بحجارة ملساء خاصة، كنبات اللهبة، والتوكير، والمشوق، وداجن داجن، تنتعش بشدة في ذلك الشهر، يشتريها الناس كلهم، يخلطونها بالعرق، وقليل من الماء، ويعبئونها في قنان زجاجية، صغيرة، ليوزعوها على الأهل والأحبة والأصدقاء الذين يودون أن يظلوا معهم طيلة العمر. الزوج لزوجته، لأبنائه، الزوجة لزوجها، لأبنائها، الأبناء لآبائهم، لأحبتهم، العشاق لبعضهم، المرؤوسين لرؤسائهم، تملقاً... هكذا، ودائماً ما تحدث مواقف قد تفسد المحبة، من بعض الذين لا يروقهم ذلك التقليد، أو لمجرد عناد ورغبة في الرفض. رفض رب عمل من الوجهاء عطر عامل فقير عنده مخلوط بعرق غزير. رفض جارة حسناء عطر جار سخيف، متلصص، يود أن تعشقه. وربما كان عرق بعض الأشخاص لئيماً،

ونتناً، ويؤدي للصداع والاستفراغ، وبالتالي إلى فقدان بوادر المحبة بدلاً من اكتسابها. أو إلغاء تلك التي كانت مكتسبة في الأصل، بلا عرق وعطر.

لكن أعتقد، وبناء على تجاربي الشخصية وتجارب أصدقاء وصديقات وجيران وأهل، أن تلك العطور الممزوجة بعرق الناس، التي ينتظرون بها شهر نوفمبر من كل عام، لا تستخدم إلا نادراً، وربما لا تستخدم مطلقاً، وتحتفظ بقيمتها الرمزية فقط، كذكرى من أحباب أو أهل في غاية اللطف والجمال.

جهزت قناني عدة من عطري الذي أسميته "الخميل"، مستخدمة نبات اللهبة، الذي أحبه، وخلطته بعرق أسلته برياضة قاسية، حين ركضت في البيت الواسع أكثر من خمس عشرة دقيقة. كانت واحدة من تلك القناني، لأبي، وواحدة ستنتظر عودة أمي التي سافرت للعاصمة، عند عمي طانيوس، من أجل علاج تمزق الظهر الوهمي أو الحقيقي، لا أدري بالضبط، وجاءت الأخبار أنها تتحسن بشدة بعد أن عرضت على الحكيم مهران، وكان مصرياً، شهيراً، مخصصاً من السلطة المركزية، لعلاج اللورد الإنجليزي، حاكم البلاد العام، وأسرته وبعض المقربين من السلطة، مثل التجار، وموظفي الخدمة العامة، ولا بد يعرفه العم طانيوس، وأيضاً كنت متأكدة أن أبي يعرفه جيداً، وربما التقيا مرة، أثناء رحلة من الرحلات التي يقوم بها جماري الزعيم للعاصمة، أو مصر، من حين لآخر.

كانت ثمة قنينة خاصة، من عطر الخميل، خلطت فيها

اللهبة بمواد أخرى هادئة مثل الحبهان والقرنفل، وخصصتها للأم مريا توموس، والدة ميخائيل، الذي أصبح الآن محوراً أخاذاً في حياتي كلها، ولم يكن بحاجة لعرق في عطر أو عطر مخلوط بالعرق، لاكتسابه، فقد كان يشم العطر المخلوط بالعرق حياً، ومباشراً، أثناء وجوده معي في أوقات كثيرة ولطيفة...

كنا نستعد لليلة عرسنا المرتقب، نجهز بيتاً مستقبلياً، في واحد من أحياء السور الرائعة، مثل حينا كاهير، أو حي لونا وراجيف الذي تسكنه معظم الأسر الراقية في السور، أو حي الظلال الذي أنشئ حديثاً، في أحد الأطراف، بعيداً عن الضجة، واشترى ميخائيل فيه أرضاً بالفعل. نسمّي ولداً سيأتي من لحمنا، لا بد جماري على أبي، وفتاة مريا، على أمه. نسمّي البيت الذي سنسكنه معاً "مخدع الحب"، والطرق التي سنسلكها "طرق الوصول للجنة" نسمّي الورد الذي نحبه "وردنا نحن"، والأغنيات التي نفضلها "أغنيات قلوبنا" وإن حدث واشتهى أحدنا شيئاً، اشتهاه الآخر لا محالة. باختصار، كنا نضحك، بمعنى كبير، وأحياناً بلا معنى على الإطلاق. نضحك من تلاشي فرق العمر بيننا، ونوغل في الضحك، لأننا نريد أن نوغل في الضحك. نخطط بعمق أحياناً وبسطحية أحياناً أخرى، ولم يحدث أن اختلفنا إلا في أشياء صغيرة، ما نلبث أن نعود ونمحوها أو نتفق عليها. حتى الهمس الذي لا يسمع، كنا نسمعه من بعضنا ونتفق عليه، والإشارات التي تصدر منا بلا قصد، مثل حك

الرأس، أو طرقعة الأصابع، أو تغيير الجلوس من مقعد إلى مقعد آخر، كنا نجد تفسيرها موجوداً وحاضراً. وبدا لي ميخائيل في تلك الفترة، ليس جذاباً فقط، ولكن مبتلاً بالجاذبية، ويستحق أن أعتذر له في سرّي، عن تلك الأيام التي صنفته فيها غير جذاب بالمرة، ولن ينجح في الفوز إن أخضع لخيارات عاطفية.

راكب الفرس الطويل الأسطوري الذي صنفته في السابق، خالياً من الوسامة، الآن غصباً عن السور، وأهلها كلهم، أوسم رجل، وغصباً عن رجال الأقباط بالتحديد، صاحب أعلى المراكز في الحكومة، وقطعاً سيتفوق على التركي يوسف دامير، حاكم المدينة، نفسه، ويحكم المنطقة كلها بإتقان لو منحوه لجام حكمها.

سألته مرة، إن كان يعرف السبب في عدم منحه درجة "بك"، حتى هذه اللحظة، بينما آخرون أصغر سناً ووظيفة، وبعضهم لا يعمل على الإطلاق، ينعمون بذلك اللقب الكبير، ويستثمرونه في أنشطتهم الخاصة، ذكرت له أمثلة لأشخاص أعرفهم، وهو يعرفهم أيضاً.

أظنني طعنته في جزء حساس من جسد معنوياته، بدا حزيناً وواجماً، للحظات، ثم ارتدّ إلى طبيعته. رد بأنه لا يعرف. لكن ما يعرفه، أن الناس كلها تناديه: ميخائيل بك، وليس من الضروري أن يكون اللقب رسمياً، وصادراً من حاكم البلاد العام. وإنه واثق أن حياتنا تمضي بجمال أكثر مما لو كان مقيداً به.

ذلك اليوم خفت من امتداد الخدش المعنوي إلى قلبه الذي

يعشقني، ولكن ذلك لم يحدث ولن يحدث، أنا واثقة أنه لن يحدث.

وفي أول عيد ميلاد لي وميخائيل في حياتي، حين بلغت العشرين، فاجأني بزجاجة عطر من ماركة "ليغانس" الفرنسية، الغالية، التي لا تأتي إلى السور إلا نادراً، وبخاتم ذهبي ذي فواريص خضراء، اشتراه من تاجر يمني، جاء بإحدى القوافل التجارية. كان أجمل خاتم أراه في حياتي، وضعته في إصبعي الثالث في اليد اليمنى، على الفور، تسكعت به في السوق، وبيوت الجيران، وجلست به في لقاءات النساء التي تستعرض فيها المقتنيات كلها، بما في ذلك السعادة الزوجية، الموجودة عند البعض، بينما لا يعثر عليها البعض الآخر.

لم يكن أبي يؤمن بخرافة شهر نوفمبر تلك، ولم يصنع عطراً، يخلطه بعرقه ويوزعه على الناس قطّ، لكنه لا يرد من يهديه عطر العرق، ويحتفظ في غرفة صغيرة ملحقة بالبيت، بقنان عديدة تلقاها من أشخاص في مواسم عدة، وجف ما بداخل معظمها بفعل الزمن.

كان يميز زجاجاتي جيداً، ولا يخلطها بزجاجات الآخرين. وطلب مني مرة أن أسأل علم الجمال الذي درسته، إن كان يسمح بحدوث مثل هذا التقليد الغريب؟

لم يكن علم الجمال حقيقة، يشمل كل شيء، وهناك أشياء كثيرة، تبدو متداخلة معه، لكنه لا يتعرض لها، إضافة إلى أنني لم أخضع تلك الطقوس الخاصة بالمحبة، لأي فقرة من فقراته.

قلت له كاذبة، وأضحك:

- علم الجمال يعتبر هذا التقليد، شيئاً رائعاً، وينصح الجميع باستخدامه.

ضحك بدوره، لكنه لم يطرح سؤالاً آخر.

الفصل الثاني

ليل

-١-

في الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر، وفي يوم سبت بارد نسبياً، وبعدما اكتملت هدايا المحبة وطقوسها المعتادة تقريباً، ولم يعد أحد يطرق بيتاً ليهدي عطره أو ينتظر في بيته ليتسلم عطور الآخرين، وابتدأ تجار النباتات العطرية يغلقون محلاتهم في إجازة اعتادوا عليها بعد نهاية الموسم، جاءني ميخائيل رجائي زائراً.

لم تكن زياراته أمراً غريباً أو غير معتاد. على العكس، كان عدم زياراته هو الغريب، فقد كان يأتي باستمرار، راكباً حصانه المسمى "العبار"، الذي أهدته له الدولة، كجزء من امتيازات الوظيفة، ويستخدمه في السور وضواحيها، وصولاً إلى الأودية والجبال البعيدة، أثناء ركضه المتواصل لجمع الثروات.

كان يسألني في العادة، عن أشياء تخص العرس الذي اقترب. أشياء تخص مريا القادمة من لحمنا، مستقبلاً، وجماري القادم أيضاً. وربما عرض عليّ طقساً جديداً يضاف لطقوس العرس، ويريد رأيي، أو يلغي طقساً غير مجد، في رأيه، ويريد رأيي أيضاً. ومنذ ثلاثة أيام فقط، أخبرني برفضه القاطع استئجار جريح سمراية،

ليغني في العرس، بسبب إصراره على إحضار راقصة عارية الصدر، وكبيرة النهدين، للمشاركة. كان بالطبع طرحاً غريباً وغير مقبول، وقد يؤدي إلى كارثة. ووافقت ميخائيل بلا تردد، سنحضر القبطي طرطور، مغني الأدوار المصرية الصعبة، والموشحات الأندلسية، التي تعلمها من الفرق الجوالة، أو محمد أحمد محمد أحمد، وكان مغنياً وقوراً، يرتدي الجلباب والعمامة، ويحمل مسبحة بين أصابعه، ويغني للحب والأشواق كأنما يردد شعائر إيمانية. ومنذ شهرين فقط، ظهرت "نوابع"، فتاة التاسعة، التي لقبت بنوابع الحلوى، وكانت تجيد الغناء بشتى أنواعه، وبصورة لا يصدقها عقل. ومؤكد سيأتي "عبيد المشاء"، ناقل الرسائل المتقاعد، ليحكي شيئاً من مغامراته المشوقة، بلا أجر، وربما جاء الشعراء النكرات، أمثال تولة، وشرباتي، وأبو سلامة، باحثين عن فقرات، تعرّف الجمهور، خاصة البنات، بهم.

هذه المرة، بدا ميخائيل مضطرباً، قلقاً، وقد وضع على شفتيه ابتسامة واهنة، حاول أن يطفو بها، فوق لجة القلق، كما بدا لي.

خفت أن تكون أمي قد ماتت في العاصمة، بمرض تمزق الظهر، أو مات أبي الذي كان يمارس نشاط تجارته، في السوق، فجأة، بسبب أزمة في القلب، أو مرض آخر مباغت... صرخت:

– أمي... أبي... هل حدث شيء؟

قال:

– لا، ليست أمك، وليس أباك...

– ماذا إذن، واحد من أهلك؟

- لا....

- ماذا إذن؟

صرخت وقد ضاع صبري كله.

- إنها مدينة السور يا خميلة، إنه الوطن كله.

الآن لم أوقفه إلا بصيحات استغراب أطلقها، بين حين وآخر، وتنهيدات قلق تخرج متتابعة من كياني...

كان ميخائيل يحكي عما سمع به في مقهى "خزي العين" المعروف في وسط المدينة، والذي تملكه وتديره الغجرية "نديمة مشغول"، ويُعد منبعاً للأخبار، بخيرها وشرّها، وما شاهده من أخبار مكتوبة على الحوائط، وقد كتبتها جماعة "الذكرى والتاريخ"، وهي جماعة سرية، تنشط كثيراً في الأزمات وتؤرخها على الحوائط، وأسطح البيوت، وحتى على الأراضي الصلبة، بنحتها، إضافة إلى تحريات خاصة قام بها من دون أن يخبرني، بمساعدة مغامرين، يهوون الأخطار، ويمجدونها...

لم يكن حكي ميخائيل، حكي خطيب لخطيبة، ولكن حكي مذعور، لواحدة أشد ذعراً منه. كانت ثمة ثورة كبيرة قد اندلعت في مكان ما قريب من السور، وجياع سمّوا جهاديين، أججهم من سمي بالمتقي، قائد الثورة، كانوا ينتهكون القرى، بيوتاً وحقولاً ومساحات رعي. ثمة قتل وذبح، وشهوات مراقة هنا وهناك، وثمة معسكران لا ثالث لهما: معسكر الإيمان، ويمثله المتقي وجماعته التي تأتمر بأمره، وتفتك حتى بآفات الأرض، في تغلغلها الفوضوي. ومعسكر الكفر الذي نمثله كلنا مسلمون

وأقباط ويهود وبوذيون... ما دمنا خارج جنون الثورة، وخارج مشروعها العنيف.

- والحاكم دامير، هل يعرف؟

أسأله وحلقي يابس

- نعم، بكل تأكيد.

- وأبي هل يعرف أيضاً؟

- نعم يعرف، واجتمعنا به وببقية التجار أمس، في مبنى مجلس المدينة، ومعهم كل من يهمه أمر السّور... ومن يستطيع أن يقدم عوناً. حتى الغجرية نديمة مشغول، أحضرناها، والقواد ولهان الخمري، كان موجوداً بأوامر من الحاكم. نحن في ورطة يا خميلة، ورطة ربما لن نخرج منها على الإطلاق.

كنا في صالة البيت المؤسسة جيداً بفضل ثراء تاجر الذرة، ووسواس زوجته، أمي، التي انقطعت عن الرسم منذ تزوجت، لكنها تختار أفضل ما تجده من لوحات الرسامين المحليين، والمستشرقين، هواة العالم الثالث الفقير الذين يمرون بالسور وغيرها، من المدن والمناطق الأخرى في الوطن وأفريقيا عامة. وفي إحدى المرات اشترت لوحة فيها وجوه مطموسة وبشعة، ترمز لوجوه الجن، في ليلة حالكة، بمبلغ كبير نسبياً، من هلال سيبو، الذي لم يكن رساماً عالمياً، ولا مستشرقاً جوالاً، ولكن ولداً صغيراً، مسكيناً، يعمل سقاء في أغلب الوقت، ويستخدم الخشب المحروق في الرسم على القماش. وصادف أن مرّ تاجر تحف صقلي بالسور، في قافلة تجارية، وشاهد لوحة سيبو، وكاد يصعق

من وضوح الموهبة وكمال الرؤية، كما قال، واشتراها من أمي بأضعاف ما دفعته للصبي.

الآن توجد أعلى رأسي، وأمامي أعلى رأس ميخائيل، لوحات متنوعة، بعضها من رسم أمي أيام كانت ترسم، وبعضها للإيطالي جيوفاني، أحد أهم رسامي عصره، والسنغالي ملهم عبيدو، الذي كان طباخاً عند بعض الإقطاعيين، واتجه للرسم منذ سنوات، ولوحتا "سنابل القمح الخجولة" و"عطر الحوريات" لهاساي تينو، وكان إثيوبياً رائعاً، يستوحي رسوماته من كل شيء، حتى البق، وقمل الرأس، والسحالي، ويزورنا مرة كل عامين، عارضاً ما أنجزه.

ألقيت بصري في المكان، وقد خفّت عندي الدهشة كثيراً، لما رواه ميخائيل، بعد أن هضمته... نعم، هضمت كل شيء، وبسرعة شديدة... فقد كنت ملمة ببوادر الكارثة، ولم أعرف أنها بوادر كارثة، أو لم أتوقع حقيقة. لقد اختفى "نشار حرنكة"، الذي كان شاباً قوياً، من سكان حي "كف عفريت" العشوائي، يهتم بحديقة بيتنا، وبيوت جيران عدة، في حي كاهير، بعد أن طالت لحيته في الأشهر الأخيرة، وبدا عصبياً، وغريب السلوك، وعدائيا أحياناً، وسمعته مرة وأنا أعبر، يتحدث إلى رجل آخر، عن حورية أحلى من بنات الأرض كلهن، تنتظره في مكان ما في السماء، ولم أفهم.

اختفى فجأة ولم نعثر عليه، حتى في بيت أهله الذين كانوا قلقين ومنزعجين وبحثوا عنه كثيراً من دون جدوى.

أخبرتني فتاة تعمل غاسلة للثياب، عند جيراننا اسمها حرة،

تأتي يومياً من مكان بعيد، بأن أخاها الأصغر رجب، مفقود منذ شهرين، ولم يعثروا عليه في أي مكان، وما زالوا يبحثون. وحكت امرأة من حي "أرض الكوثر"، كانت تمر على الأحياء الراقية، تقرأ البخت للنساء الناعمات، مستخدمة حجارة ملساء، عن أكثر من مئتي رجل قوي، من سكان حيها، تحدثوا عما سموه "بيع الذنوب في سوق الآخرة"، وأنهم ذاهبون ليشتروا الغفران بالدم. وشاهدت شخصياً بوادر الهمّ على وجه أبي منذ يومين، ولاحظت أنها تزداد في كل مرة، وظننتها علامات همّ، تختص بمرض أمي، وطفت أمس بالذات على فرسي بالأحياء القريبة من حيّنا، وبدا لي أهلها متعجلين، ونافذي الصبر، يحملون أجولة الذرة والقمح، على ظهورهم...

أشياء أخرى كانت عادية، وكانت ستظل عادية، تحدث في أي وقت، في مدينة مختلطة الأعراق هكذا، لولا زيارة ميخائيل.

كانت جيلال امرأة فرنسية، في نحو السبعين، ودودة، وتعيش وحيدة منذ أربعين عاماً، حين جاءت في حملة تبشير مسيحية. غادرت الحملة بعد سنوات، ولم تغادر هي لأنها أحبت الحياة في السور، كما قالت. الآن هاجمها ملثم، منذ أيام، في بيتها، طعنها بسكين في صدرها، وفرّ، لكنها لم تمت، وحالتها لا تزال حرجة.

كان واتاب عيسى، من إحدى قبائل الشرق، وجاء إلى السور منذ عشرة أعوام، وافتتح محلاً لبيع القدور والأطباق الفخارية التي يصنعها بنفسه. كان سكيراً، اعتاد الناس على صوته المترنح، يغني، ودعاباته التي تبدو أحياناً غير مقبولة، لكن لا أحد يهتم.

واتاب وجد مذبوحاً وملقى في جدول راكد، قرب السوق، منذ يومين، واستغربت المدينة كلها، تلك الفاجعة. أيضاً سمعنا عن شخص اسمه مرغديش، كان شاذ السلوك، ومذموماً من كل من يعرفه، قتل بخنجر يحمله ملثم. وحكت رسامة أوروبية اسمها كاترين جو، كانت تقيم منذ ستة أشهر في السور، ترسم الحياة الشعبية من دون خوف، أن ملثمَين هاجماها ليلاً في بيتها الصغير، في أحد الأحياء، انتهكا جسدها عنوة وفرّا، وكانا يرددان كلمة: كافرة.

ولأن الأحداث كانت متسارعة وغريبة على مجتمع السور، فقد كانت أشبه بالإلهام لأشخاص كثيرين، حين اخترعوا أحداثاً مشابهة، أو ربما مختلفة تماماً، نسبوها للملثمين، لدرجة أن امرأة لها صوت بشع وسوداوي، ابتدأت تغني، بزعم أن جماعة من الملثمين، هاجموها، مهددين بقتلها، إن لم تغن...

قلت، وأنا أرتعش:

- إذن تأكدتم فعلاً يا ميخائيل، أن هناك ثورة حقيقية ومجرمة، خلف تلك الأحداث الغريبة، ووراءها من سمي بالمتقي؟

- طبعاً تأكدنا... المتقي حقيقة، وثواره حقيقيون، والسور ستختفي إلى الأبد، إن لم نلحق بها.

- وماذا ستفعلون؟

- حتى الآن لا ندري... لا أحد يدري.

-٢-

أحسّ بالمغص، وبكثير من الغرابة، ومرارة الطعم، وأنا أتحدث عن تلك الأيام السيئة، التي قضيتها، وقضاها أبي وميخائيل، وسكان السور كلهم، نتحرى، وننتظر ما يأتي من المجهول.

كانت الحكومة المحلية، وعلى رأسها التركي يوسف دامير، وخطيبي ميخائيل بالطبع، وبمساعدة كثير من وجهاء المدينة، تسعى لتجهيز ما تستطيعه من عتاد في مواجهة غزو مجنون، لم يعد احتمالاً قد يصيب وقد يخطئ، ولكن حقيقة ساطعة، تشبه كل الحقائق، تشبه الأرض، تشبه السماء، تشبه المطر، تشبه الوجوه المألوفة جداً.

الرسل الحكوميون الذين ذهبوا خارج السور، يتقصّون، ويستكشفون، ويتابعون، عاد البعض منهم جوعى، وعطشى، ومذعورين ويائسين، ولم يعد البعض الآخر بأي صيغة من الصيغ، وحكوا عن امرأة من قبيلة "الفلاتة" المستوطنة في أماكن قريبة من السور، كانت طويلة، وقوية، وشبيهة بالرجال، ذهبت تتقصى من دون أن يطلب منها أحد ذلك، وعادت عمياء، وكسيحة، وقد نبتت

في جسدها الطحالب، من جراء مئات الشهوات التي أريقت عليها. وانتبه أهل السور الذين يؤجرون دوابهم من حمير وإبل وجياد، كمواصلات بين السور والقرى المحيطة، أنّ تلك الدواب، ذهبت ولم تعد، أو يعود الأجراء الذين يقودونها، مرة أخرى.

حتى الحاكم دامير نفسه، فقدت دوابه المستخدمة في ذلك النشاط، كما أخبرني ميخائيل.

لم تكن المسألة، تفكيراً محدوداً في خراب بيت محتمل، أو ضياع أهل وعيال، ومنصب أو جاه، ومحاسن ومساوئ، ولكن في موت "السور" كلها. تلك المدينة التي تتأرجح بين الانضباط والفوضى، بين التحضر والتخلف الأخاذ، في كل أيامها، منذ أن وجدت، لكنها لا تخشى أن تكون وطناً يضم فئات المجتمع، وطوائفه كلها. الأعياد كلها واحدة، حفلات الأعراس، والختان، تقام غالباً في العراء، ويحضرها هؤلاء وأولئك. الأمراض المهلكة والبسيطة، تصيب سكان أرض الكوثر الفقير المعدم، وفي الوقت نفسه، تصيب سكان لونا وراجيف، وحي كاهير، أرقى حيَّين في المدينة، وقد كتب ديلان دورا، وهو مستشرق فرنسي أقام في السور عاماً ألّف فيه كتاباً معرفياً شيقاً قرأت نسخة منه: "إن المدن العظيمة، مثل الحسناوات اللائي تتمنى في قمة ارتباكك لو كنت جزءاً من جمالهن، كأن تصير رمشاً في العين، أو شامة على الخد، أو مجرد نظرة من نظراتهن، وأنا تمنيت أن أكون حتى لو زقاقاً ضيقاً، أو نافذة مغلقة في مدينة السور"

ابتدأ الناس يلاحظون بجنون، أن ثمة تغيّرات كبيرة ومهمة،

حدثت في الأشهر الماضية، وعلى مدار عام كامل، ولم ينتبه إليها أحد، أو لعلّ البعض انتبه، وأفلت انتباهه سريعاً. ثمة بيوت كثيرة في أحياء عديدة، كانت خلت فجأة من الرجال، وبعضها خلت من النساء أيضاً. شوارع كانت تسلكها قوافل العمال الذاهبين ليزرعوا أو يحصدوا أو يرعوا دوابهم ودواب غيرهم، ما عادت مطروقة بشدة، وفي كل يوم جديد، نسمع هرجاً جديداً:

بعض الحمالين الأشداء، في سوق أبي جهل الشعبي، والسوق الكبير، ممن تعود الناس على وجوههم وسواعدهم، لسنوات طويلة، لم يعودوا موجودين.

تجار صغار، ومتبطلون قدامى، كانوا يسترزقون بالكذب، ما عادوا موجودين.

نساء لطيفات، كنّ مشاريع محبوبات، وربما زوجات، وأمهات، لا يعرف أهلهن، إلى أين ذهبن... الكلام كثير، والذي يستطيع الخروج من السور والعودة إليها مرة أخرى، يحكي، ولا يتوقف عن الحكي.

في أحد الأيام، أخبرني ميخائيل أن التجار المسيطرين على تجارة الشبع، خبأوا السلع الضرورية، في مخازن سرية، بحيث شحت على رفوف البيع، تضامناً مع إرهاصات الحرب اللعينة.

كان محصول الذرة هو أكثر المحاصيل استخداماً، ووجبات الذرة هي الوجبات السائدة في قهر الجوع، إضافة إلى القمح والأرز والشعير وبعض السلع الأخرى، غير المستخدمة كثيراً، مثل فول الصويا. وقد كانت الذرة بعد طحنها، تستخدم بطرق

مختلفة، أشهرها العصائد التي كانت الوجبات الأكثر تداولاً وفهماً من قبل من يصنعها ومن يأكل.

كان أبي، هو تاجر الذرة الرئيسي في المنطقة، له مزارع شاسعة، حول السور، يعمل فيها مئات العمال، ومخازن بلا حصر، تسكن فيها سلعته لفترة، وتعبأ في جوالات من الخيش، قبل انتقالها للتجار الصغار، أو تجار القوافل الذين يسافرون بها إلى أماكن أخرى. وقد حاول كثيرون منافسته في تلك الزعامة التجارية، ولم يقدروا. وقدم مرة تجار من العاصمة، بغرض استثمار أموالهم في السور، وضاعت تلك الأموال حين بذرت في مزارع الذرة، وركد محصولهم، من دون أن يشتريه أحد.

باغتُّ أبي في قيلولة مضطربة من قيلولاته التي باتت كذلك منذ إرهاصات الحرب، وأعلم أنه أحد الذين استثمروا الهلع، لصالح الكسب. كان يأكل قليلاً، ويجلس على مقعد دوّار مصنوع من سيقان نبات "القنا"، ويظل يحركه يميناً ويساراً وعيناه مغمضتان، من دون أن يغفو، وربما ينهض فجأة، يقفز على ظهر حصانه القوي وينطلق ليغيب ساعات ويأتي من دون أن يسأل عن أحد.

وقفت أمامه أبكي، أطلب منه وسط دموعي، أن يفرج عن محصوله المكدّس في المخازن، أو لعله مخبأ في أماكن لا يعرفها أحد، لأن الناس جاعوا.

لم يرد عليّ لكن عينيه اللتين فتحهما عن آخرهما، ورماهما عليّ فسّرتا ما كان سيقوله، لو نطق. كان يعتبرني بلا شك، في تلك اللحظة، فتاة بلهاء، غبية، لا تعرف أن الحياة حقب، ومواسم،

والتجارة كذلك. موسم الأمن والاستقرار، يعني ضآلة في الكسب، أو ثباتاً فيه، وموسم الزعزعة، يعني طفرة في الكسب.

قال هامساً:

- الحرب لها قوانينها يا خميلة.

- لكن الحرب لم تقم.

- ولن ننتظر قيامها، لأنها إن قامت، فلا كسب كبيراً ولا صغيراً، ولا كسب على الإطلاق. هل تفهمين؟

فهمت بمرارة، فلم يكن أبي في تلك اللحظات هو جماري الذي أعتبره طيباً، وكريماً، ويليق به أن يكون حبيباً للفقراء، وحقيقة لا أعرف من أين خطرت ببالي "حبيب الفقراء" هذه فلم أسمع بها من قبل، لقباً له أو لأحد من زملائه التجار، وربما هي رغبة في قلبي، أو أمنية، أردتها أن تتحقق دائماً، والآن أتمنى فعلاً، لو تحققت، وفي زمن لم يكن زمن أمنيات.

بكيت في ذلك اليوم كثيراً، وبكيت ربما عشرات المرات في أيام عدة، وأخبرت ميخائيل أني أبكي، بلا توقف، ولا يحدث البكاء عند أبي شيئاً سوى الضجر، لدرجة أنه كاد أن يصفعني مرة. فطلب مني ميخائيل أن لا أبكي مرة أخرى، فلست مسؤولة عن جوع أحد أو موت أحد، أو ذهاب أحد إلى الجحيم. الحاكم التركي، هو من أعطى جماري وزملاءه التجار، ضوءاً أخضر، حين اجتمع بهم يوم باغتته أخبار الغزو المرتقب، وقال لهم: "افعلوا ما ترونه مناسباً"، وهم الآن يهتدون بذلك الضوء، وسيأتي يوم، ينطفئ. وربما يحدث ذلك بعد فوات الأوان. طلب مني أن أضحك كثيراً،

كثيراً جداً، أضحك على الفجر حين يشرق، والمساء حين يهل، أضحك على الشجر، والهواء، والماء، ومواقف الحرج، والخوف. وحتى على الكآبة حين تسيطر. أتلون بملابسي، أزركش وجهي بأدوات زينتي، أسرّح شعري بتسريحات مختلفة، وأعتبر الحرب القادمة، مجرد قصة رعب تحدث وقائعها في مخيلة مؤلف من أولئك الذين قرأت لهم أيام كنت في مصر، وما زلت أقرأ لهم، حين تصلني الكتب التي أطلبها، عبر القوافل، أو يوفرها باسيلي، في مكتبته الوطنية...

القوافل؟...

تذكرت فجأة، أن هناك شيئاً اسمه القوافل، كان رباطنا مع العالم، والشريان الذي يأتي عبره التحضر، سألت في ذعر:

– ماذا عن القوافل التجارية يا ميخائيل؟

رد ميخائيل بأسى، أن الطرق المؤدية لأيّ مكان، مغلقة تماماً بالنيران المشتعلة، كما وصف من خرجوا واستطلعوا وعادوا، والجهاديون، ثوار المتقي، يسنون سيوفهم ورماحهم على ظهور الإبل، التي كانت قوافل تجارية قادمة للسور وتم انتهاكها، وقرصنة محتوياتها.

تجار عديدون كانوا قادمين ببضائعهم، وماتوا أو ضاعوا، أو انضموا صاغرين لجيوش المتقي التي باتت قريبة جداً، وتحاصر السور، والسور استعدت بحفر الخنادق، وبقايا جيش أكلت ثيابه العتة، ولا يدري أحد من سينتصر.

كان مرض "التخمة الكاذبة" قد انتشر في المدينة، المرض الذي

تؤكد ذاكرات المعمرين، أنه لم يضرب السور وما حولها، منذ أزيد من ثمانين عاماً، أي منذ أيام مجاعة "الخناق"، نسبة لمرض الخناق الذي يفسد الذرة، والذي تمّ القضاء عليه، بمجهودات كبيرة آنذاك، ولم يظهر مرة أخرى.

كانت المصارين تنتفخ إلى أقصى درجة، بفعل الغازات الناتجة من تفاعلات الجوع، ثم تنفجر بغتة، مما يؤدي إلى الموت. وحتى بعد أن لان بعض التجار قليلاً، وأفرجوا عن بعض السلع الهامة، لم يكن لدى الناس همّة تجعلهم يأكلون أو يشربون. كانت الهمّة الوحيدة هي همّة الموت، والخطوات المتثاقلة في الحياة، تركض إليه ركضاً.

لا شيء إضافياً غير مرتبط بالموت، لا كلاماً سوى الكلام عن الموت، ولوم الموت، واستعطاف الموت، وتأجيل مشاريع الفرح، حتى يعفو الموت...

حولت ساحة المجد التي كانت حديقة وارفة وخضراء، ومزدانة بالورد، في وسط السور، وما حولها من الأراضي الخالية، إلى سرداب كبير، سيضم بعض أهل السور غير القادرين على المواجهة: النساء، الأطفال، كبار السن، والمصابين بمرض رهاب السيوف النادر، حيث تصرعهم مجرد رؤية السيوف، وتدخلهم غيبوبة طويلة، وكانوا قلة، ومن أسرتين فقط في السور كلها، وقيل ورثوا المرض عن أجداد قدامى، ولا بد يورثونه لأجيال قادمة.

كانت نديمة مشغول، الكردية، أو التركية، أو التي من غجر الشام، لا أحد يعرف أصلها بالتحديد، صاحبة مقهى "خزي

العين" الشهير، عند نقطة التقاء مواصلات الريف، من إبل وحمير وأحصنة، حيث وردت أولى إرهاصات الغزو، وما تلاها من أخبار. كانت قد خرجت من السور، بعد أن تزوجت بعسكري قديم كان يحبها بلا اتزان لسنوات طويلة، ومات في شهر العسل. خرجت منقبة الوجه، وسوداء في زي أسود، برغم نداءات أهل السور كلهم واستعطافهم، وضاعت كما يبدو في لجة غير معروفة. وأخبرني ميخائيل الذي كان يخصها بود وتخصه بود أيضاً، أنها قطعاً سقطت في فخ جهادي، ولن تعود مرة أخرى.

كانت أخبار أمي قد انقطعت تماماً، فليس ثمة تواصل بين العاصمة والسور، كما ذكرت، وبرغم ما أصابني من قلق على عدم سماع شيء جديد عنها، إلا أنني اعتبرت وجودها خارج السور، في تلك الأيام، شيئاً إيجابياً، فلن تموت كما قد نموت، وستبقى تذكرنا إن حدث ذلك.

كنت ألجأ أحياناً للكتب، أقرأ رواية **كوابيس أفريقية** للكيني توماس جاب، للمرة الثالثة في شهرين، وأستغرب من جبروت الكتابة، وسطوتها على مستقبل الشعوب. كانت القصة عن قرية وادعة اسمها نوناو- تو، تعيش على حافة غابة، وتقتات مما تهبه تلك الغابة، وما يمنحه نهر صغير يجري في المكان. ثمة قصص للحب، كلها عناق وقبلات، أساطير تروى في ليالي السمر، حول النيران، وحسناوات ممشطات الشعر، ومزدانات بعقود الخرز الملون، يقمن مسابقات للجمال بينهنّ، تستقطب الشباب، يفزن فيها كلهن، والعجائز لا شيء يفعلونه سوى الضحك والتذكر، ورثاء

العمر الذي ذهب. ثم فجأة، وبلا مقدمات، تحولت الأشجار المتشابكة كلها، إلى ضباع عملاقة، عوت بجنون، وافترست البلدة.

أرتبك، أحس بالرعشة، واستغرب من القدرة الفائقة لتوماس جاب على رسم الكابوس المتخيَّل، الذي هو كابوسنا نحن الآن. أفر للشعر، خاصة كتاب **قصائد إلى خوان** لشاعري ريماس، أحس ببعض السلوى في القصائد التي فيها انتصار للإنسان ومشاعره، وحياته، حتى لو كانت بائسة وبلا طعم، وأتمنى لو ننتصر:

لا أدري يا خوان لـمَ تعلمت الكتابة؟
لا أدري لمَ تحولت من غابة جيدة،
إلى غابة جيدة أخرى؟
ولم غازلتني عيناك واستجبت لغزل عينيك؟
أنت خائف يا خوان...
أنت خائف جداً،
والحياة بليدة،
لا تعرف الفرق بين حروف المدح
وحروف الهجاء،
وأن القمر مشرق حتى وهو ضائع.
سأخبرك شيئاً سيدي،
إبحث عن أكثر الألحفة دفئاً في بيوت معانيك،
وتغطَّ به،
وقل للذين ينادون المستقبل:

لا تنادوا المستقبل، رجاءً
لا تنادوه،
سيأتي بنفسه.

لا أنكر أنني فكرت كثيراً، في تغيير ديني واتباع ديانة المتقي، فربما أعثر على سلوى ما، أو أنجو من السيف إن اقترب من عنقي، على الأقل، لكن مسلمين معتدلين، وودودين ورائعين أعرفهم، وأعرف الكثير عن عقيدتهم، المنصفة، وشاركتهم أفراحهم، وأعيادهم، ومناسبات أخرى اعتادوا إحياءها في السور، رددوا أن الأمر ليس كذلك، والثورة التي تسيطر أخبارها الآن، لا تبدو انتقاماً لدين معين، بقدر ما هي فوضى، وأنهم هم أنفسهم، قد يصبحون ضحايا لذلك الفهم المشوش المجنون الذي تحمله تلك الجموع التي تحاصرنا، بعد أن بطشت بالقرى، والأرياف.

لم تكن الخنادق التي حفرت حول المدينة، تبدو في رأيي كافية، أو متاريس جيدة لصدّ اللعنة، بالرغم من أنني لم أرها حتى الآن، ولا أعرف ما هو حجم اللعنة. لم تكن أغنيات الحماسة التي ألّفها شعراء ناضجون وآخرون لا يعرفون حتى معنى الشعر، تكفي لإسناد السيقان المتهالكة بفعل الخوف، ونقص الغذاء، إن اندلعت الحرب. لم يكن سرداب ساحة المجد يكفي الجميع بالطبع، ولا حتى نصفهم، أو ربعهم، ولا يبدو آمناً، بمعنى أن يصمد إن سقطت السور. وبالنسبة لي شخصياً، بدأت أفقد شهية العشق لخطيبي ميخائيل، وأتعامل معه كصديق مزمن ورفيق معاناة، ربما نموت أو ننجو معاً.

لم نعد نسمي ولداً قادماً جماري، وفتاة قادمة مريا. لم نعد ننتبه إلى أننا رجل ناضج وامرأة ناضجة، قد تجمعهما حياة زوجية ذات يوم.

كانت توجد بالسور، في تلك الأيام، فرقة تمثيلية هزلية، اسمها فرقة "النعجة" كانت تتكون من أربعة رجال وامرأة، قدموا من ناحية تشاد، أو غانا، واتخذوا السور بدايةً لانطلاقهم نحو مدن وطنية أخرى وربما بلاد أخرى... مثل مصر والشام. كانوا مختصين بتقليد الحيوانات بشتى أنواعها، يقلدون وجوهها وسلوكها أيضاً. وقد نجحوا كثيراً في تقليد الأسد والنمر والثعلب، والحملان الصغيرة، والطيور المسكينة، والجارحة... ونجحوا في إسعاد كل من شاهد تلك العروض، وكانوا قدموها في سرادق مغلق، قريباً من وسط المدينة، يدخله المتفرجون بدراهم قليلة. وفي الوقت الذي أزالوا فيه مخيمهم واستعدوا للمغادرة، جاءت إرهاصات الحرب، ثم جاءت بقوة، وتقطعت السبل للمغادرة.

أخبرني ميخائيل أن أعضاء تلك الفرقة الهزلية، وكنا شاهدنا عروضها معاً ذات يوم، ما عادوا يستطيعون البقاء في السور أكثر، وقد أصيب اثنان منهم بمرض سوء التصرفات المعروف بانتشاره في أوقات الأزمات، وكم من مرة ضبطا يتلصصان على العورات في البيوت، أو يسرقان من أماكن البيع القليلة التي ما زالت تعمل.

ذهبت مع ميخائيل نستطلع أحوال تلك الفرقة، وكانت المفاجأة أنهم فروا برغم وجود الجيش في مداخل المدينة، وأخبروا كل من

شاهدهم يفرون، أنهم جنود المتقي، أعزه الله وأكرمه. وسيعودون للسور منتصرين.

كانت صدمة كبيرة لمجتمع السور، متعدد الطوائف والهويات، الذي ضحك على هزليات هؤلاء، لكن الصدمات موجودة في الدنيا، ومثلما يوجد الضحك، يوجد البكاء، توجد الضجة ويوجد السكون، وفي النهاية، يوجد الموت، عدواً قاسياً للحياة، يتبعها بحرص وعناد.

-٣-

في أحد الأيام أخذني ميخائيل إلى حدود مدينة السور، وبالتحديد إلى حيث الخندق الكبير الذي حفر بسواعد نصفها مرتعش ونصفها واهن، في مدخل "بوادر"، المدخل الأكثر أهمية، والذي يتوقع أن تسلكه الجموع الغازية في محاولة دخولها للمدينة. وكان ثمة مدخلان آخران، وسط غابات المسكيت التي تحيط بالمدينة، كانا صغيرين، وتمّ ردمهما وإغلاقهما تماماً.

كان أفراد الجيش الوطني الذي يقوده القائمقام عرديب، مرابطين هناك، وفي وسطهم كثير من أهل السور القادرين على حمل السيف والحربة، والرشق بالنبال، والذين يملكون جرأة أن يجزوا رأساً أو ينحروا رقبة، إن دعا الأمر. كانت على وجوه الجميع، تصاميم متباينة، وثمة أغنية حماسية بشعة، تتحدث عن الذبح، والسلخ، وبقر البطون، وأكل المصارين نيئة، يرددها الجميع، بلا استثناء، وبدت لي من ركاكات الشاعر القبطي الماجن مسمى طاؤوس، لكن ميخائيل أكد لي بإصرار، أنها ليست من صياغته، وأن مسمى نفسه غير موجود في مدينة السور منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وغير

معروف أين ذهب. وكان مستبعداً جداً بالطبع أن يكون التحق بالمتقي وثورته، فقد كان قبطياً أولاً، ومسرفاً في المجون ثانياً، ولو أخضع لمقاييس العنف الذي سمعناه عن ثورة المتقي، لما استوفاها. كان سيئاً بالفعل، ويتوقع منه أن يفعل كل شيء ليعيش، لكنه ليس عنيفاً أبداً.

أوقفني ميخائيل في نقطة عالية في المكان كانت على سفح تل رملي، كانوا يسمونها "نقطة الهلع"، ومنها استطعت أن أرى أشباحاً كثيرة تتحاوم في البعيد، وتملكني الهلع بالفعل...

كان ذلك كما أخبروني، منظراً ثابتاً منذ ثلاثة أيام، ويراقبون بتأن أيّ تغير قد يحدث فيه، إن تقدمت الأشباح نحو السور، أو اختفت عن الأنظار.

- هل شاهد أحد المتقي؟ هل يعرفه أحد؟

كنت أسأل لأول مرة، بعد أن كان السؤال محفوراً في ذهني لفترة طويلة، وأظنني سألت قائد الجيش، القائمقام عرديب، الذي كان موجوداً في المكان، يساند جنوده معنوياً، ويردد معهم أغنية الحرب البشعة التي ليست من نظم مسمى طاؤوس.

القائمقام عرديب لا يعرف والقادة الآخرون لا يعرفون أيضاً، فهم منفذو أوامر، فقط، لا مستكشفين، ولو قيل لهم: حاربوا الشمس أو القمر، لحاربوهما فوراً، ولو قيل لهم الآن: عودوا إلى بيوتكم، ودعوا السور تهلك، لألقوا كل دربكة الحماسة التي يحملونها، وذهبوا على الفور.

ميخائيل ردّد بأن أحداً لا يعرف من هو المتقي حتى الآن،

والرسولان التركيان أرقم وجاويد، اللذان قدما من العاصمة، وكانا هنا وغادرا بأوامر من الحاكم، التقيا بصوت قيل إنه صوته، وكان ذلك في خيمة منصوبة في بقعة ما بالصحراء، وكان صوتاً مميزاً وأسطورياً كما وصفاه، ثم سلمهما أتباعه رسالة إلى الحاكم، تطالبه بتسليم مدينة السور فوراً، حقنا للدماء. وكان أن بصق الحاكم على ورقة قذرة، وسلمها للرسولين، لأخذها للمتقي، كردّ على رسالته، وكانت تلك البصقة، هي الشرارة التي أدت لحصار السور، ومقدمات دكها التي تتحاوم في الأفق.

ذلك اليوم، عدت إلى بيتي مرهقة وقلقة أكثر، تتعرى أسئلة الوجود والعدم في ذهني، وتستتر، ألملم ذكريات جيدة، وأخرى غاية في السوء، من الماضي، وأبعثرها مرة أخرى، ولم أستطع أن أغفو، أو أغمض عيني حتى، إلا بعد أن ذهبت برفقة خادمة في البيت، إلى حيث تسكن مارتا، القبطية العجوز، وأحضرتها لتجلس معي، تحكي لي قصص أولادها الأسود، وسفاهات زوجها الميت، يعقوب الذي باعها بلا أي رعشة من ضمير، لرب قافلة تجارية، حطت في السور، ذات يوم. وأخبرني أبي الذي التقيته في أحد ممرات البيت مصادفة، وبصوت فيه تصميم وعنف، أنه لن ينهزم من غوغاء، وسيدافع عن مخازن غلته بنفسه، إن تركه العمال وفروا. كان يملك سلاحاً نارياً حديثاً اعتاد استخدامه في رحلات القنص حول السور، ويبدو أنه جهّزه الآن لمجابهة الغزو.

بكيت بشدة، كنت أتمنى أن ينضم إلينا في ساحة المجد التي أضحت سرداباً واسعاً، سيضم الضعفاء كلهم، أو معظمهم،

وصدرت أوامر الحاكم بدخوله غداً، لكنه لم يستجب...

لم يكن جماري الزعيم ضعيفاً في أي يوم من أيام حياته، ولا كان خائفاً من شيء، حتى الموت. وأوصاني أن أنقل محبته المتجددة لأمي، إن صادف ومات، ونجوت أنا... لكن الأمر لم يكن بيدنا ولا يعرف أحد حتى الآن، من سيموت ومن سينجو، في مدينة كانت ملهمة برغم فوضاها، والآن تقطعت بها السبل.

في اليوم التالي كنا في سراديب ساحة المجد، وما حولها من أماكن. كان المكان ضيقاً بالنسبة لعدد من طرقوه، لكنه محروس جيداً بفصائل من الجيش، وعدد من المتطوعين الشباب، وقد أخذني ميخائيل إلى هناك، وجاء بأمه وأبيه، وعدد من جيرانه. كان ثمة خلق كثير، نفس فئات مجتمع السور المعروفة، نفس التنوع الذي اعتدنا عليه طوال حياتنا، وتحولت ساحة المجد وما حولها فجأة، إلى سور صغيرة، تؤوي التناقضات كما كانت السور الكبيرة تفعل في كل حين....

الآن فارقني ميخائيل ليواصل نشاطه المشع من أجل المدينة، ولم أر أبي الذي لم أره حقيقة، بصورة جيدة، وأتحدث معه بعمق، منذ أن قويت إرهاصات الحرب. وتلفتّ حولي أبحث عن إلفة بين الضعفاء وكان ثمة كثيرون من معارفي، أم ميخائيل ابتسمت لي بأسى، والده رجائي صاحب الإصبع المفقود، مبتسماً ليس لي ولكن لأنه عثر على إصبع الخاتم بحسب ظنه، ويبتسم بمرح، والولد العسكري المتدرب رزق، تم تخريجه على عجل أو لعله تخريج موقت، والآن واحد من حراس ساحة المجد.

كانت كثير من نساء الجيران متوفرات، عشرات المسنين اليابسين والخائفين، موجودين، ومنهم من كان يتحدث عن ذكريات دسمة، شملت حروباً خاضها، ونساءً غامر معهنّ، وأطفالاً أنجبهم، وملابس جديدة كان يرتديها بدلاً من هذه الرثة. كنا نسمع، ونبتئس أكثر، وأيضاً نختنق من العرق، وزفارة الأنفاس.

اقتربت من السيدة أمبيكا بسواس، زوجة باسيلي البوذية، التي أكملت ستة أشهر من الزواج، وتبدو حاملاً من انتفاخ بطنها، وعلامات قرف على وجهها، واسوداد طفيف في خديها. كنت أحببت وجهها الجميل كثيراً، وأحببت انعزالها في ركن مظلم، تمارس طقوساً صامتة، وتأملية، لا بد طقوس ديانتها. سألتها عن نوع الصلوات التي تؤديها، فقالت، ليست صلوات، ولكن رياضة للذهن. عن باسيلي، وأين يوجد الآن؟ فردّت أنه غائب منذ أكثر من شهرين، وتظنه مع الذين يتكدّسون على الحدود، يدافعون عن السور. سألتها عن حملها، وإن كان يسير بلا منغصات، فأجابت بثبات أنه مستقبلها الذي ستقاتل من أجله ألف مريض شبقي قد يقترب منها. واستغربت من لهجتها، وتوقعها أن تهاجم جنسياً، وما زلنا لا نعرف جيداً، من هم ثوار المتقي، وما نوع ثورته؟

كانت ثمة مؤن قليلة، من ذرة وقمح وخضار مجفف ولحوم نيئة ومطبوخة، قدّر من رتّبوا توفيرها، أنها تكفي لأيام، ربما تصمد السور فيها، وربما تصد الغزو، وربما تسقط تماماً، وفي تلك الحالة، لم يكن هناك خيال يستطيع أن يرتب شيئاً.

- ٤ -

نحن المحبوسين في سرداب ساحة المجد وما حوله من السراديب الأخرى الصغيرة، وأعني الضعفاء والأقرب إلى الضعف، بتصنيف الحرب، في مدينة توشك أقدام الحرب أن تطأها بالفعل، لا نعرف بالضبط ماذا حدث ولا كيف حدث، وهل ذلك الهرج الكثيف، وتلك الفوضى التي شممنا أنفاسها أولاً، قبل أن ندخل فيها، حقيقة أم مجرد حلم من أحلام القهر التي ما فارقت مخيلة أهل السور، مذ عرفوا أن المدينة أضحت مستهدفة من قوى وصفت بأنها قوى شرّ ولعنة.

كنا محبوسين حقيقةً، ولأيام عدة، لم نرَ الشمس إلا سراب أشعة، يتسلل من فتحات صغيرة صنعت للتهوية. كنا نطهو ما نقدر على طهوه من لقم بسيطة، سيئة الطعم، ونأكل بمقدار ضئيل، أو لا نأكل على الإطلاق، نشرب من ماء شبه مالح، مخلوط بالطين، لأن الآبار الجيدة، كانت خارج المدينة، حيث يكمن وسواس كبير.

كنا نتودد للأمل كثيراً، ولا نتمنى في تلك الأيام، سوى أن تتقهقر

الدنيا أشهراً قليلة للوراء، لنعود أهل السور، اللطفاء والسخفاء، والأثرياء والفقراء، والشرفاء واللصوص، كما كنا دائماً، أو تتوقف عند هذا الحد بلا خسارة جديدة.

كانت ثمة أسئلة كثيرة، ممغوصة، وتخرج من الكبد والأحشاء، كنا نتشاركها ولا نمل مشاركتها:

لماذا كل هذا؟

لماذا هناك، في الدنيا، من يتبنى التدمير، والخراب، وسحل الدم، وتوجد آلاف الطرق التي يمكن أن تسلك من أجل تعمير المدمّر أصلاً، آلاف الحيل لصناعة ضحكة، لاختراع ابتسامة، لردم سكة موحلة؟

لماذا ستموت تلك الشجرة الوارفة الظليلة، ويمتلئ بالدم ذلك الوعاء النظيف، ويذوي جمال تلك الحسناء، وتتهدم بقسوة تلك الجدران التي شيدها أجدادنا حين بنوا السور، إحدى أهم المدن تجارياً واقتصادياً في البلاد كلها؟

لماذا لن تكون هناك تجارة، ولا زراعة، ولا رعي، ولا فصول دراسية، ولا قوافل تجارية تدخل المدينة، وتخرج، ولا أي لمسة رائعة من لمسات الحياة الرغدة؟

لماذا لسنا في بيوتنا الآن؟ ولماذا أعيننا مفتوحة عن آخرها، ولا نعاس فيها، وقد أصبح نومنا المستقبلي بيد غريبة قد تسمح به، وقد لا تسمح، وقد تحيله نوماً أبدياً؟

وفي النهاية، وبجدية كبيرة، نعم بجدية مذهلة، ومرهقة:

من هو ذلك المتقي قائد الثورة كما يسمونه؟ وكيف نبع فجأة

ونبعت فكرته المدمرة، وانضم إليه كل هؤلاء الأتباع الذين وصفوا بالجبروت، وأنهم يتبعونه بتفان، لو دخل النار، دخلوها، ولو سقط من جبل، سقطوا خلفه، ولو مات في أي لحظة... ماتوا؟

- يا الله... يا رب... لا إله إلا أنت سبحانك.

نردد... نصرخ كلنا...

- إله صخرتي به أحتمي... ترسي وقرن خلاصي، ملجإي ومناصي، مخلصي من الظلم تخلصني.

نتهجد كلنا...

- اطلبوا تجدوا، اقرعوا، يفتح لكم... يفتح لكم...

نصلي... كلنا.

نتحدث بتشنج عن حكومة السور، وعلى رأسها التركي يوسف دامير، نَصفها بالحكومة الغبية، التي لم تنصف السور حين لم تفكر في احتمال استهدافها، منذ زمن طويل، ولم توفر الحماية الجيدة. نتحدث بتشنج أكثر، عن الحكومة المركزية، في العاصمة، التي يرأسها لورد إنجليزي، وكانت بلا شك تعلم بنواة ثورة المتقي، حين هبت في قرية "أباخيت" الريفية، ولَم تفعل أيّ شيء، وكان من الممكن أن تفعل أشياء كثيرة، وذات جدوى، كأنْ تعطل الطرق التي تخرج من قرية أباخيت، منبع الجنون واللعنة، تبحث عن المتقي وهو قليل الأتباع ما يزال، وتفترسه، مثلاً... أو ترسل جيشاً صالحاً للمهمات الحقيقية، يحاصر جماعة المتقي، وهم يحاصروننا، ويقضي عليهم...

كانت خمسة أشهر قد مضت منذ أن قدمت أولى إرهاصات

الحرب، وكانت تكفي لصناعة شمس جديدة، أو قمر جديد، أو لعنة مضادة للعنة.

كنت محبطة إلى أقصى حد، وجائعة ليس للأكل، ولكن للحب، حب نفسي، وحب مدينتي، وحب قمر بعيد في سماء بعيدة. يقول ريماس في إحدى قصائده:

"كوني دخيلة على الفرح، حتى وهو مستاء
كوني عاشقة لقلبك، تجدي قلبك يعشقك"

ولم أكن أستطيع أن أفعل ذلك، لا أستطيع حقيقة.

في الماضي، كان ريماس يلهمني بقوة، والآن أحتاج لمن يساعد في دفني أكثر من منحي رماد حياة، قد لا تكون.

لا أدري لم كنت، برغم كل ذلك البؤس، هدفاً لأنظار بعض النسوة، ممن اجتمعت معهنّ لأوّل مرة، وكنّ خائفاتٍ ومذعوراتٍ ولا تريد كثيرات منهنّ أن يصدقن أنّ الأولاد اللطفاءً المكافحين، الذين كانوا موزعين في الأحياء كلها، ومسالمين إلى أقصى حد، يزرعون ويروون ويحصدون، ويرعون ويتاجرون، ويدرسون في خلاوي القرآن، أو عند القساوسة، ويغازلون الفتيات برقة كبيرة، وبغمزات العيون فقط، يمكن أن يصبحوا وحوشاً تلتهم أحداً، وتقضي على رونق مدينة، طالما كان موجوداً منذ أن بنيت في تلك المنطقة، لتخدم مناطق كثيرة، وغنية، وتصبح مورد ثروة جباراً في دعم الاقتصاد الوطني. لا يُردن التصديق أن بنات صغيرات، يملكن الغنج والمستقبل، ويمكن أن يتزوجن وينجبن، وينجب أبناؤهن،

قد اخترن الألم، وانسحبن من المدينة، حاملاتٍ زاد الأنثى، لرجال لا يستحقون.

- عبد الباري؟... الطيب، صاحب اللمسة الحنونة؟ مستحيل.

تصرخ واحدة اختفى شخص تعرفه، أو ربما كانت تحبه.

- ليلاب... الطويل، ابن عمي الأبله؟ هذا لا يستطيع ذبح دجاجة، كيف يقتل البشر؟...

تبكي واحدة أخرى فرار ابن عمها إلى نهج المتقي، وضياع الصلات الطيبة معه...

- جبران، ابن أختي... الحبيب ابن الحبيبة، لا تشبههم يا ولد... لا تشبه النجاسة يا ولد...

واحدة عجوز تبكي...

- ليلى، وفتنة، وتهنوس، جميلات حينا... لا حول ولا قوة... لا حول ولا قوة إلا بالله.

أردت أن أنتشي، أن أفخر بخطيبي ميخائيل رجائي، حين ذكرت الثروة المتوفرة في السور وضواحيها، وقد لا تعرف أولئك النسوة، أنه من يجمعها، وكان أبوه قديماً يجمعها، ولولا ما حدث لجاء ولده جماري ليجمعها أيضاً، لكني لم أنطق بحرف...

أسكتني صياح الباكيات على الجيرة وأواصر الدم، والنائحات على أحباب، لن يكونوا أحباباً مرة أخرى.

وفي الحقيقة، وبغض النظر عن كل شيء، كانت خامات الفخر أصلاً، في قلبي ولساني جافةً تماماً، والذي كان رطباً ومن الممكن أن ينهمر الآن، هو السّباب، هو اللعنات كلها... أيّ شيء يستدعي

السباب، حتى لقم الأكل، ماء الشرب، وأنفاس العرق، المدرة للغثيان.

كان معنا رجال مسنون كما ذكرت، آباء وأجداد، وآباء أجداد، فقد كان تقدم العمر في السور، مسألة سائدة، لا أحد يستغرب من بلوغ مسنّ عمر المئة، ولكن قد يستغرب إن مات وهو في الستين، التي تعتبر سناً حيوية، ومعطاء، وفيها يتزوج كثيرون وينجبون، ودائماً ما يتحدث الناس عن لولابي، أحد أبناء قبيلة الفلاتة، وأنه كان يحكي عن حوادث عاصرها، مثل حروب ومجاعات، دوّنها التاريخ بوصفها من أبرز أحداث نهاية القرن الثامن عشر، ولم يمت إلا قبل إرهاصات الحرب بشهرين فقط.

كانت قد برزت في تلك الأيام الصعبة، مواهب غبية لبعض أولئك المسنين، المحشورين معنا، لم تكن تناسب جو الحرب قطّ، ولا تصلح لإبرازها داخل سرداب مظلم، ينار بالفوانيس ليلاً، وبلهاث متعب، من ضوء الشمس المتسرب نهاراً...

ظهر عرجان طوبة الأسلمي، المقيم في حي كف عفريت، وكان حمّالاً متقاعداً منذ أربعين عاماً، ويبلغ التسعين، ظهر كمغنّ جيد الصوت فعلاً، برغم تساقط أسنانه، وتآكل حنجرته، وانكماش لسانه في منتصف فمه، بسبب تجاعيد العمر، لكن لا أحد طرب لأغانيه، أو صفق له.

قدّم عبد الحق علي عبد الحق، وكان في السابعة والثمانين، ومن حي كف عفريت أيضاً، حياته، فداء لسيدة شبه ميتة، كان عاشقاً رومانسياً، يجيد غزل العجائز الكلاسيكي، مثل: يا قردة

الجمال، أو يا نملة قرصتني في القلب، أو أحب أن أنفض حذاءك وأبلعك... ويمكنه أن ينظم قصائد الشعر أيضاً، ولم تكن المرأة المريضة تسمعه، أو تراه، أو تحس بطعم غزله وقصائده.

وبشيء من العبثية، كانت إحدى بائعات الطحين القديمات، تحمل جزءاً من بضاعتها، حين حشرت، وطرحته للبيع في السرداب المظلم. أيضاً كان بائع عطور سبعيني، حاملاً سلة، فيها عطور محلية، وينادي عليها بصوت منغّم. لكن أسوأ ما حدث في تلك الأيام، هو اكتشافنا لوجود مراهقين بذيئين، تسربوا إلى المكان كأطفال صغار، صحبة أمهاتهم، وكانوا بلا شك، حاصدي عورات، متوفرة بكثرة، وصائدي مزاج ناري متقد، في زمن لا تصلح فيه أي امرأة في ذلك المكان لشيء يخص المرأة. كان بينهم، للأسف، توما أمير، ابن حارس نادي يوتوبيا، الذي صنفته معتوهاً جنسياً منذ زمن وكنت أتحاشاه، وبالطبع لم يكن من السهل تحاشيه في هذا التوقيت والمكان، ومراهق آخر، اسمه القاضي، كان معروفاً بثقل الدم، واختراع طرق موحلة، في الغزل، لا تتقبلها الأنثى بأيّ حال من الأحوال.

وبمجهود غريب بعض الشيء، وبمساعدة نتف من ذكريات صعوبات واجهتها أيام سفري إلى الدراسة في مصر، بدأت أتعلم ما سميته "علم القبح"، ولم يكن علماً حقيقياً، ولا راسخاً بالتأكيد، ولا سمعت أنّ هناك من درسه، في أي مكان. وكان يوجد شخص مصري في السور، اسمه شفيق بهجت، كان في منتصف العمر، وقيل يدرس علماً اسمه "الانحطاط"، ويختص بالثورات

والانقلابات، والأزمات الاقتصادية، وتظاهرات الجوع. وأخبرني ميخائيل أنه لجأ إليه لمساعدته في حل لغز ثورة المتقي، ورفض أيّ تعاون مع السلطة.

علم القبح الذي ابتكرته يختلف، إنه للتسلية وتمضية الوقت لا أكثر.

ابتدأت بشعري، مشطته في ضفيرتين طويلتين، تشبهان ضفائر الغجريات، وبنات الريف، والنساء الشعبيات، وعثرت عند واحدة من النساء القادمات من حي أرض الكوثر، على مسحوق اسمه "الضرير"، ينثر على الشعر، ويحوّله إلى كتل بنية، سيئة التكوين، ويعتبره الريفيون من أدوات الجمال. وفي ركن بعيد، نتخذه كمرحاض، نحن النساء، ومغطى بستار سميك من القماش، نزعت فستاني الراقي البنفسجي، الذي فصلته بنفسي، بإرشادات من علم الجمال، في زمن الرخاء، واستبدلته بفستان كانت ترتديه واحدة غجرية، اسمها "اللسان"، كان عبيطاً في ألوانه، وممزقاً في أماكن عدة. بصقت على وجه رجل أشيب، مدّ يده، ولمسني، وصرخت في وجه المراهق توما، بالرغم من أنه لم يمسني بشيء، ولا كان حتى ينظر ناحيتي في تلك اللحظة... أردت أن أتلوث بالتربة المالحة، أحك جلدي حتى يدمى، وأقول للعجوز التسعيني، الذي كان يغني للظروف والتوهان: أكرهك، وللعجوز الآخر، صاحب الغزل والقصائد: اصمت...

كانت هناك امرأة مسنة، موجودة بقربي، ولا أعرفها، ولا أدري أكان ذلك مصادفة، أم أنها قصدت أن تكون قربي. كانوا

ينادونها "الأم جويرية"، وكانت قريبة في العمر بمارتا القبطية، أم العيال الذين فروا وما تزال تفاخر بهم، والتي أفتقدها كثيراً، وأظنها في جحر آخر من الجحور المحيطة بسرداب ساحة المجد. تلك العجوز، أعني جويرية، ابتدأت تشدني إليها بيدين ناحلتين، كثيرتي التجعدات، لكنهما قويتان، ابتدأت تدلك رأسي ويدي وساقي، وتدلق على أذني كثيراً من الحكم والأدعية التي لم أكن أعرفها، وغالباً من أدعية عقيدتها كمسلمة. ابتسمت، حين قلت بأنني أمارس تعاليم القبح، ومؤكد ظنتني، أو اعتبرتني فعلاً، في حالة جنون موقت بسبب الحرب، وهذا شيء لا يستبعد حدوثه. وحين هدأت في النهاية وأمكنني أن أشم عرقي، وأقبض أنفاسي بحيث لا تلهث بشدة، وأحس برغبة في أن آكل شيئاً من أقراص الشعير التي أعدتها بعض النسوة، تركتني العجوز، وما زالت تبتسم، وأسرعت نحو فتاة أخرى، اسمها نبعة، كانت في جنون هي أيضاً، ابتدأت تصرخ وتنتفض، وتحاول أن تنزع قميصها، من دون مراعاة أنها في وسط رجال، ضعفاء فعلاً، لكن ما تزال أعينهم تبصر العيب وتقيمه، ومراهقين جنسيين لن تمنعهم بوادر الحرب من رسم فضائح الأنثى، وتخزينها في الدماغ وجلبها في أقرب وقت تستقر فيه الأمور.

كنت هادئة الآن، لدرجة استغربت فيها من نفسي، وفقط أفكر، وأتمنى لو صرت أمبيكا بسوساس، التي لم تأكل قطّ، مذ دخلت معنا، ولم تشرب إلا بمقدار، وجلستها في ركنها البعيد، لا تتغير إلا قليلاً، وتعود مجدداً للصمت والتأمل، والسكون الرهيب.

-٥-

حقيقة لا أستطيع الجزم بأنني كنت حية، حين اشتد الهدير، وامتلأت سراديب ساحة المجد بالدم. لم أكن أرى جيداً، وأحسست بأنني أطير أو أركض أو أدفن في حفرة عميقة، لا أدري بالتحديد.

كان كل ما حولي غامضاً، وتكاد أذناي أن تنفجرا من ورم الصياح، الذي تغلغل فيهما...

يسقط الخونة.

يسقط الكفر.

يسقط الإلحاد.

أعزَّ الله المتقي.

أكرم الله المتقي.

أظنها ساعات طويلة، تلك التي كنا فيها خارج الزمان، وخارج الحواس كلها، وأعني نحن الضعفاء والأقرب إلى الضعف، الذين تحصنوا في السرداب، وما كان حصناً، ولا شبه حصن. وحين ابتدأنا نتحسس زماننا، وخطوات المعنى في أدمغتنا المعطوبة، كان كل شيء قد انتهى، بمعنى أن كل شيء قديم مزهر، قد يبس،

وثمة شيء جديد غالباً ما يكون خراباً شاملاً، قد ابتدأ.

الآن، نحن في السوق الكبير، في الساحة الواسعة، حيث كانت تعرض خضروات المواسم، وبضائع الهنود الجوالين، من أدوات للحلاقة، وأساور للزينة وأمشاط، وخواتم، وقلائد للعنق، وبرطمانات العسل المستخلص من نحل حر أصيل، حيث يثرثر العجائز بفداحات آخر العمر. وحيث كان يباب التركي، المجنون، يقدم عروضاً للزواج الفاخر، لكل نساء المدينة، بشكل يومي ومستمر، ويأتي مخلوف، مجنون آخر، يبحث عن خشب من النار، لبناء سفينة نوح.

لم نكن كل المستعطفين الذين تكاتفوا في السلوى والسخط حتى بداية المأساة، ولكن الخلاصة فينا، الخلاصة النظيفة التي ستصلح مرقداً للشهوات المتغطرسة، كما قدرت، وكما سيقدر كل من استرد جزءاً من عقله، وابتدأت تهزه الحواس. نساء قبطيات كنّ ربات بيوت جيدات، وشريكات حميماتٍ لرجال يكدّون، ويكسبون ويعودون، ويستطيعون أن يرووا ويرتووا، نساء يهوديات وبوذيات، ومسلمات أيضاً، كنّ يملكن لباس الأمهات والزوجات، ولباس الشهوات أيضاً، حين يشتهين أو يشتهيهن أحبابهن. لا أحد يفرق الآن بين ثكلى وعذراء، بين امرأة أحد وامرأة لا أحد، الملثمون الهادرون بعزة المتقي وإكرامه، يملأون الأرض، ينبعون من خلف الحوائط المهدمة، والنيران المشتعلة، وجذوع الأشجار الميتة، ينبعون من داخل أرحام فوضوية، تنبتهم بسرعة، وتنبت غيرهم. ثمة من يتحسس الأجساد بيده أو قدمه، أو بعصا يحملها،

من يقرص خداً دامياً، أو يلهو بحلمة مذعورة، برزت من تحت قميص ممزق، من يضحك بشره، كأن الموت نكتة، وكأن الذعر أيادٍ مرحة تدغدغ المصارين، ومن يغض الطرف عن الرعب وتمزق الحواس ليلحس شبقاً متخيلاً، ولن يكون حقيقياً أبداً.

وقفت ممزقة جداً، ممزقة روحاً وجسداً، أتأمل سطوع المأساة، ذلك الذي لن يستطيع أحد وصفه. أنقل بصري المشوش في الحياة الهادرة من جانب، والميتة من جانب آخر، أرى راياتٍ خضراء ترتفع فوق رؤوسنا، وجياداً تلقي في الفوضى بفرسانٍ مغبرين، ويابسين، ولا يشبهون الفرسان في شيء... أسمع نساءً يزغردن بأصوات الفرح، وأطفالاً يصرخون، وأسمع من يصيح: قضينا على الكفر، قضينا على الإلحاد، قصصنا رؤوس الحيات. يتشوش عقلي أكثر، أسد أذني بأصابعي التي فيها دم، رؤوس الحيات، من يا ترى؟... ميخائيل؟ لا... لا... أبي جماري؟... لا، لا... من؟ التركي يوسف دامير، حاكم المدينة؟

أسدّ أذني ولا أسمع... لا أريد أن أسمع، سقط بصري الذي مددته أكثر على صف من الرجال البؤساء، كانوا يقفون بخضوع، وقد تلوثت قمصانهم بالدم. هذا إيزاك، صائغ الذهب، صائغ الملكات، ومبتكر النقشات المثيرة. هذا مفكر فندوري، تاجر الخمور اليوناني. هذا توما، مراهق الجنس المعتوه. هذا جريح أسعدين، جريح سمراية، المغني سيئ الخلق، وغريب السلوك. هذا زميله طرطور القبطي، مغني الموشحات العجوز. هذا أبو سلامة الشاعر. وهذا... يا إلهي، إنه ميخائيل، إنه ينادي... خميلة...

خميلة، وثمة يد خشنة تشدني، وأصوات متداخلة، وعنيفة:

- أيتها السبية الكافرة

نزعت خاتمي الذهبي ذي الفواريص الخضراء، هدية ميخائيل لي في عيد ميلادي العشرين، ألقيته على الأرض أمامه، وانشددت بتلك اليد القوية الخشنة، إلى حيث لا أعلم. الآن انتهى زمن، وابتدأ زمن، وآمل أشد الأمل أن تتاح لي فرصة أن أموت مبكراً جداً، وقبل أن أصبح عبدة لمصاص جسد مهووس أو جارية رخيصة، ربما تباع لتاجر يرتدي عمامة التقوى.

كان ميخائيل رجائي، لا أحد، وحياتي السابقة كلها، لا شيء... لا شيء، لا شيء...

كانت اليد تشدني، الصوت يشدني: كافرة، كافرة... وعشرات الأيدي والأصوات، تشد نساء نظيفات، ضعيفات، خائفات: أمبيكا بسواس، الحامل في شهرها السادس، ميراكار ابنة فندوري، ساراما ملكة جمال العازبات في عصارى حي لونا وراجيف، صوفي الخياطة التي جاءت من مصر من أجل الرزق وتحولت إلى طبق على مائدة الغرائز، نديهة، شموس، عائدة...

لم أرد أن أتذكر مريا تومومس، والدة ميخائيل، ومارتا القبطية، صديقة الليل والأرق، أم العيال الهاربين، وكثيرات من نفس الجيل، أو أجيال سابقة، هذا هو الوسخ الذي أحرق بلا شك، وردمت فوقه التراب، ولا بد في ساحة المجد التي أسمعهم يرددون اسمها كثيراً، مقرونا بالتعاسة والضياع، وقد سموها الآن: بئر الشيطان.

الفصل الثالث

النار

-١-

نحن الآن في بيت واسع بعض الشيء، وفي حي لا أعرفه، ولا أظن أنه من تلك الأحياء التي اعتدت على رؤيتها، من حين لآخر، وأنا أتسكع بفرسي الأليفة شهرزاد، أو أزور أحداً أعرفه من سكانها، وبالرغم من أن المدينة في مجملها، تبدو بائسة وممعنة في البؤس، واختلطِ فيها الخراب بالخراب، والوحل بالوحل، ولم يعد ثمة فرق واضح بين حي كاهير الراقي، وحي ونسة حيث بيوت الإثم، أو أرض الكوثر العشوائي، الذي يسكنه المهاجرون من الأطراف. إلا أنني أستطيع تمييز الفخامة، حتى وهي قد دكت، أشم روائح الرقي في أماكن كانت راقية، وروائح المغص أيضاً، في أماكن كانت وما تزال ممغوصة، وشممت ذلك الحي على عجل، وقد دخلناه، بعربة خشبية تجرها الحمير، وكانت مغلقة بقماش أسود داكن، ولم تبد لي الرائحة مألوفة. كانت رائحة مغص كثيف.

ربما كان حي تماضر، حيث كانت تقيم ضاربة الودع، وقارئة المستقبل الشهيرة، تماضر ساكر، وسمي باسمها، أو حي الثعبان الميت، أحد أفقر الأحياء على الإطلاق، ولا أدري لـمَ سمّي هكذا.

كان البيت نفسه غريباً، وأظنه كان بيوتاً عدة، متجاورة، وقد تمّت إذابة الفواصل بينها، لتصبح بيتاً جيداً لإيواء غنائم الحرب النظيفة. والحقيقة أن الحرب نفسها لم تكن حرباً عادية، أي حرب فريقين متكافئين، ويرغبان في الحرب، كان التهاماً شرساً بأسنان همجية، لحملان كانت ترعى في برية مزدهرة.

كان البيت قد جدد كما يبدو على عجل، أي في تلك الساعات القليلة التي أعقبت الغزو. أو لعل ذلك حدث قبل الغزو، بأيام، ولم ينتبه إليه أحد. ثمة رائحة طين نيء تنبعث من كل مكان، وبخور بدا لي عنيفاً، وكارثياً يعبق في المكان، مزاحماً الطين في رائحته. كانت الجدران كلها عارية، وملساء، ولا أثر لنقش فني، أو فكرة مبدعة، متحضرة، ربما تحتل جزءاً من المكان. كانت توجد أبواب كثيرة، لعلها أبواب غرف للنوم، أو أبواب دهاليز مجهولة الوظائف، ويوجد رجلان أسودان، وليّنان، يضعان اللثام على وجهيهما، ويحملان حربتين على أيديهما، عرفت على الفور، ومن قراءاتي في كل مجال، أنهما خصيان، وكانت مرّتي الأولى التي أشاهد فيها خصياً حقيقياً مجسداً أمامي، فلم يكن في السور خصيان من قبل، بحسب ما أعلم، وخمنت أن الخصيين، وربما آخرون، جاءوا مع الغزاة، ووظفوا لحراسة النساء الغنائم.

كان الحارسان يدفعاننا برفق، وبصوتين غاية في العذوبة، يرشداننا لأماكن النوم، وأماكن الاستحمام، وقضاء الحاجة، يرددان أن هناك من يطبخ وهناك من يغسل الثياب. وسنعرف كل شيء في حينه.

وبرغم الخوف والغم، كدت أضحك من كلمة ثياب، فلم تكن هناك ثياب أكثر من تلك التي توشك أن تذوب على جلودنا. وشخصياً كان قميصي الذي عليّ، هو قميص "اللسان" الغجرية، وقد استبدلته معها بقميصي الغالي، ساعة أن كنت في سرداب ساحة المجد، أرزح تحت ثقل ما سميته علم القبح، وما اعتبرته الأم الطيبة، المبجلة جويرية جنوناً موقتاً وقد كان بالفعل.

ترى ماذا حل باللسان الغجرية؟ وماذا حل بفستاني البنفسجي، الغالي الذي ترتديه؟ لقد صارحتني بوقاحة، ونحن في جمر السرداب، بأنها ستبيعه، إن نجت، وستشتري بسعره أغناماً، ونعاجاً، ولن تتسول أو تقلم أظفار الحمير بعد الآن، لتعيش، لكن كان ذلك حلماً مجهضاً، مثلما أحلام السور كلها، في تلك الأيام، أحلاماً خارج سياق الأحلام.

والأم جويرية نفسها، هل نجت؟

لا أعتقد، فكل من لم تكن غنيمة جيدة، دفنت في بئر الشيطان، الذي كان سابقاً حصن ساحة المجد المسكين.

كنت قد دفعت بذلك الرفق، وتلك الرقة الأنثوية، من أحد الخصيين، إلى غرفة ضيقة بعض الشيء، رائحة الطين فيها أشد عنفاً، وفي وسطها حصير قذر من سعف الدوم الملون، مفروش على الأرض، ولا وسادة فوقه، وثمة مرآة كبيرة، مشققة، متكئة على الحائط، في أحد الأركان، خمنت بأنها لمراجعة الزينة، قبل لقاء المحظوظين.

كانت تخيلاتي متسخة، وأعترف بذلك، لكني أعتقد أيضاً أنها

تتسق ومرحلة التفاهة التي وجدت نفسي داخلها.

لكن أين أدوات تجميل الوجه؟ أين مرطبات الجسد؟ أين الحناء، وعطور الشبق المحلية، التي تصنع خصيصاً لقضاء ليالي مبهجة؟ ومن يدير هذا الصرح الدنيوي الشرير، وهم يتحدثون عن متّقٍ وثورة دينية، ومجاهدين، تكاتفوا لطرد الشر؟

ظللت أفكر بلا توقف، وأنا أقف في تلك الغرفة شبه المعتمة، يأتيني ضجيج الضعيفات، وبكاء بعضهن، وأحاول أن أبكي، ولا توجد دموع تكفي، لِرسم سطر واحد في سطور تلك المأساة.

فجأة تذكرت أن أبي لم يكن في صف الخاضعين الذين شاهدتهم في السوق، وكان فيهم خطيبي ميخائيل. وإيزاك موسى، وفندوري، وكثيرون ممن أعرفهم. تذكرت أن هناك من ردد بصوت متشنج، أن الحيات قد قصت رؤوسها، وفي معمعة بليدة كهذه، أي قبطي قد يكون حية، أي بوذي، قد يكون، وأي مسلم مسالم، لم يعتد أو يسمح بالاعتداء، قد يكون حية كبيرة، ويقص رأسها بلا تردد. لكن إيزاك اليهودي، حية، ورأيته ورأسه في موضعه، فندوري تاجر الخمور، حية من صنف مطلوب، بتجارته المحرمة، وكان يبدو مذعوراً ومريضاً على وشك الموت، لكن رأسه في موضعه، وتذكرت أن ولهان الخمري، قوّاد حي ونسة الذي يعرفه سكان السور كلهم، ويلقب بالماء، لميوعته، كان باركاً في مكان ما من أماكن المأساة، لكنه لم يفقد رأسه.

ترى أي حية تلك التي قص رأسها؟ وماذا حدث لجماري الزعيم، ماذا حدث لمخازنه التي امتلأت بالذرة، الشاحة في المدينة

بوصفها سلعة حرب، وكان يؤمل مكسباً ما... لكن الحرب كانت ضده، وضد من لم يمنحهم الخبز، إنه أبي وأنا بلهاء ولا أفهم في التجارة، ولا بد أن من حرموا الذرة أنفسهم يفهمون لماذا كانت الذرة شاحة، وهي مكدسة في المخازن.

الآن أريد أبي، أريده بأي طريقة، ولا أعرف صدقاً ولا أظنني سأعرف في الوقت الحالي، إن كان أحد تلك الحيات التي قصت رؤوسها، أم سنعود ونلتقي من جديد، يحدثني عن بيعه وعراكه، وجداله في السوق، وأحدثه عن توافه البنات، ورغباتهن المدفونة.

لن أتذكر أمي ولن أبحث عن مواقف أو ذكريات معها، لأنها حية بكل تأكيد، ومن المفترض أن يكون ظهرها المتآكل قد شفي، وأن تكون امتلأت هلعاً علينا، حين وصلتها الأخبار. كل الطرق مقطوعة، كل من يوصل الأخبار توارى أو مات، وبرغم ذلك يصل السوء في الغالب، الأخبار التي تحمل روائح الموت تصل، وبسرعة أكبر كثيراً من تلك التي تحمل أخبار الفرح والفخر والعز...

في آخر يوم لنا في سرداب ساحة المجد، سمعتهم يتحدثون عن عبيد المشاء، الذي تقاعد عن السفر وإيصال الرسائل للعاصمة، منذ عامين، قالوا استعاد وظيفته فجأة لأن منادياً ناداه في الحلم: يا عبيد... أسرع... أسرع...

قيل، عبأ مخلاته وجراب مائه، وارتحل بسرعة، ولم يكن خائفاً من أحد، قال: ناقلو الرسائل والأخبار تحت حماية دولية، بحسب القوانين، ومن يعتدي على ناقل أخبار من السور، كأنما اعتدى على ناقل من روما أو بلاد البلقان، أو لندن العظمى...

كان أهله خائفين، معارفه يتمنون لو لم يرحل، ومعروف تماماً أن ثوار المتقي ليسوا داخل أي قانون يجبرهم على الرضوخ له، هم خارج الدنيا وخارج أي ترف إنساني...

كنت أصغي للغط المستفز، وقد استعد بعض الضعفاء داخل سرداب المجد ليصبحوا ثواراً، كانت العصبية يانعة فأججوها... لم يقل أحد: أعز الله المتقي، لم يقل أكرمه الله، وفقط هناك من سيقولها حتماً حين يسقط الفأس في الرأس، ويصبح قولها مفتاحاً محتملا لحياة جديدة.

ونحن في العربة المحتشدة بخامات الاشتهاء، نادتني ماريكار فندوري: خميلة... خميلة. كانت في الثالثة والعشرين، تكبرني بثلاثة أعوام، جميلة وواثقة من جمالها، وأول من ارتدت الحذاء الجلدي الذي تزينه وردة في الوسط، أحضرته بشقاوة، من بلاد بعيدة ربما إيطاليا أو الشام، أو بلاد البلقان، أيضاً أول من صبغت أظفارها بسائل الورد الذي جاء من مصر، معبأ في زجاجات صغيرة، وسرحت شعرها بمشط النار، الذي عرضه تاجر هندي جاء في قافلة، وخافت النساء على شعرهنّ منه، وكان مشطاً من حديد رقيق، مصقول الأسنان، يوضع على النار لحظات فقط، ثم يمرّر على الشعر، فيحوله إلى حرير... فتاة راقية، تحب الحياة وتسعى خلف أي ابتكار حياتي مذهل سيغير معنوياتها، وها هي في الجحيم، وكل ما لديها واكتسبته طوال حياتها كابنة تاجر خمور متمكن، قد ضاع، وإن لم يضع، فلا قيمة له على الإطلاق...

كان شعرها الآن شبيهاً بشعر عجوز، مهمل، لم يرتب منذ

عهد، عيناها متورمتين من فعل بكاء اضطرت أن تبكيه، حين علمت بموت أمها في سرداب ساحة المجد، وشاهدت والدها في صف الخزي، والذل، واقفاً، ويبدو سيقف بقية عمره، ما دام لا حلّ آخر...

- خميلة، هل تعرفين أين والدك؟

لم أرد، ولا أستطيع الرد، لا أستطيع.

رجاء ماريكار... رجاء كلكم... لا يسألني أحد.

جماري كان يحرس غلته، بقلب قوي، وسلاح معبأ، وقد يكون نجا وغادر السور إلى جهة غير معلومة وسيعود باحثاً عني، وقد يكون الآن ميتاً.

يا إلهي؟ هل من الممكن أن يكون مات فعلاً؟

تذكرت أنني في قلب النار ما أزال، وقد لا أنجو أنا كذلك، وابتسمت، نعم ابتسمت، أحب أن أرحل أنا الأخرى، فتاة راحلة، ماتت من صدمة أو هلع، أفضل كثيراً من جارية أو سبية، أو خزان متعة، تدخله الشهوات كلها.

أحسست بأنني سأسقط. سأموت.

-٢-

فجأة، وأنا أوشك على السقوط في وسط الغرفة الطينية الضيقة، وجدت نفسي محاطة بنساء غريبات، نساء لم أرهن من قبل قطّ، كنّ ثلاثاً، كانت أكبرهن في نحو التسعين، عجوزاً حقيقية، بكل تهدل العجائز، وانحناء الظهر، والسعال الداكن المتقطع، والنظرات التائهة، وانطفاء الجلد من كل أثر للحياة.

كانت ترتدي ثياباً زرقاء فاتحة، تضع أساور من الخرز الملون على اليدين، وتعلق على عنقها المجعد تميمة، كانت من سمات العجائز في تلك الأيام، وغالباً تحتوي على آيات قرانية، أو أدعية عن درء العين والحسد، أو مقاطع من صلوات النصارى واليهود إن كانت العجوز منهم.

كانت الثانية في منتصف العمر تقريباً، ضئيلة الجسم، وتبدو قد نشأت في حي فقير، أو أرض جرداء، لأن قدميها كانتا حافيتين، وخشنتين، ووجهها بدا لي شبيهاً بوجوه الأغنام، ولا أعرف السبب، والثالثة كانت فتاة، في مثل عمري أو أكبر قليلاً، كما قدرت، وتبدو من طبقة أعلى قليلاً، لأن أصابعها نظيفة، أظفارها

تحمل آثار طلاء جمالي، ووجهها منفعل بالحياة، برغم الكابوس الذي نحن بداخله كلنا...

جلست النساء على حصير السعف القذر في منتصف الغرفة، وجذبتني إحداهن لأجلس بدوري. وأحسست بالخوف فجأة، كنت في الأصل خائفة، والآن خائفة جداً، تمنيت لو كنت برفقة أمبيكا بسواس، أو ماريكار فندوري، أو جارتي القديمة زينة، أو أي واحدة أخرى من اللائي عرفتهن مؤخراً، أيام سرداب ساحة المجد، الذي انحشرنا فيه كلنا، ولم يكن آمناً ولا كريماً معنا، وتضخم لديّ هاجس مرضي أن أولئك النسوة الغريبات، سيقتلنني، وبرغم أنني تمنيت فعلاً أن أموت وجسدي لا يزال محافظاً على عنفوانه، لم تطأه شهوة عربيد يرتدي التقوى، إلا أنني أرحب بموت أقل عنفاً، أقل مشقة، مثل الموت بسمّ التربان، المستخلص من عشبة ضارة، وتباد به القوارض، أو بصندل الموت كما يسمونه، وهو خشب، من شجرة عطرية، لا توجد في السور ولكن في أماكن بعيدة، ويرسل غازاً ساماً، إن تمّ إحراقه، وكان يستخدم أيضاً لأغراض تخص الزراعة وآفاتها.

بدأت أبحث بنظرات ضائعة عن خنجر مدسوس هنا أو هناك، عن حبل قوي مفتول بحقد، قد أختنق به، عن سواعد أقوى من ساعدي، وبدت لي كل السواعد، بما فيها ساعد المرأة التسعينية، قوية وقوية جداً، لكن لم يكن ثمة حبل أو خنجر ظاهر لي في تلك اللحظة. ابتعدت سريعاً عن الحصير، انكمشت في ركن الغرفة، أركض بنظراتي الضائعة نفسها، هنا وهناك، وأفكر بعنف.

فجأة قالت الفتاة، وكان صوتها جافاً إلى أقصى حد، ربما لم يكن صوتها الحقيقي، وجفف خصيصاً لمناسبة إيذائي، لم أكن أعرف ولا أستطيع أن أعرف:

- أنا نجيمات...

أشارت للمرأة متوسطة العمر، رددت:

- هذه الخالة منحدرة...

ثم إلى المرأة العجوز:

- وهذه سيدتنا أم الطيبات.

كانت أسماء غريبة للغاية، ولنساء مختلفات تماماً، ولا يتفقن إلا في تغطية الرأس كاملاً، والثياب الزرقاء التي انتبهت إلى أنها من قماش واحد، لا بد قسم عليهن، وفي تلك النظرات القاسية، التي بدت لي فصلت لعيونهن أيضاً.

نجيمات، اسم غريب، على السور، لم أسمع به، ولا أعتقد بوجوده، خاصة في الجيل الذي أنتمي إليه وتنتمي إليه الفتاة أيضاً. منحدرة، اسم كبير، ومخيف، لم أسمع به قطّ، وأم الطيبات، سمعت به، وكان داخل قصة أسطورية، حكتها لنا إحدى الجدات ونحن أطفال ما نزال. كانت أم الطيبات التي داخل القصة، امرأة عجوزاً تعدت الثمانين، تعيش في كوخ قريب من غابة بها أشجار متشابكة. كانت طيبة، ورقيقة القلب، يحتمي بها الأطفال من أبناء الصيادين، إن خافوا، وتطعمهم في لحظة الجوع، فقط كانت تتحول إلى ضبع في الليل، يطارد الأطفال أنفسهم، ويلتهم من يقنصه.

ارتعشت بشدة، من فكرة أن أم الطيبات هذه، هي الضبع

الأسطورية، نفسها. وبكل ضراوة في البصر، بدأت أتأمل أظفار يدها، وكانت غير عادية، أو ربما كانت عادية، وصوّرتها بذاءة التفكير، غير عادية.

لكن من هؤلاء النساء، وماذا يردن من سبية كافرة، وخائفة؟

تحدثت الفتاة الصغيرة، نجيمات، وبصوت أكثر خشونة من صوتها الأول، صوت حيوان متوحش. وضحت أنهن مجاهدات، ثائرات من قرى مختلفة حول السور، التحقن بالثورة، وانتصرن معها، ودخلن السور ليبدأن حياة جديدة، في ظل الإيمان والتقوى، والتحضر. والآن، وبتكليف من الإمام المتقي، أعزه الله وأكرمه، يملكن صلاحية أن يعفين عنا تماماً، أو يذبحننا... كانت ترتعد وهي تردد كلمة الذبح، وأرتعد معها، ارتعاد القوي وارتعاد الضعيف. استمرت: أم الطيبات، أمنا جميعا، وسترعى بمساعدة منحدرة، هذا البيت بنسائه، ستعلمهنّ الطهارة، والعفة، وتعرضهنّ على الأبرار الذين ربما يتكرمون ويتزوجوهن، أو يعاشروهن كرقيق مباح لهم. وفي كلا الحالين، نحن سنربح، كما فهمت، أعني نحن النساء السجينات في ثورة المتقي. لقد كان تلخيصاً مؤلماً لما فكرت به، منذ أول يوم سمعت فيه بإرهاصات الغزو، كل سعر ناتج من أي فكرة أو مرض، أو لهاث مخبول، لا بد ينتهي شبقاً عند النساء، اشتهاءً مجنوناً للنساء، تعاسة مؤلمة تطأ النساء، وما شاهدته في السوق الكبير، من نزيف غرائزي، ونحن سبايا نعرض، ممزقات، وبعيدات عن أي إغواء أنثوي، يؤكد لي أن نجيمات، التي لا أعرف هويتها، قد لخصت ما سيحدث. تلك أيضاً كانت

لحظة تمنيت فيها الموت بجدية، نعم، يمكن التمني بتردد والتمني بجدية، وكنت جادة إلى أقصى حد.

كانت الفقرة التالية أشد إيلاماً، حين تحدثت منحدرة، وكانت كما بدت لي ريفية، قحة، وعنيفة جداً، وربما كانت ستكون رجلاً، ولكن لم يتم ذلك. كان وجهها الشبيه بوجوه الأغنام، كأنه يتحدث كله، كانت ترتدي سراويل بيضاء ممزقة تحت ثوبها الأزرق، وكأنني لمحت سلاحاً حاداً، مثبتاً تحت الثوب لكنني لم أكن متأكدة، كان صوتها كأنه سوط جالد:

- اسمك منذ اليوم هو النعناعة، النعناعة فقط، وأي التفات للماضي، أو تذكر شيء منه، يجعل دمك، شبيهاً بدم العصفور. لا تعرفين فتاة اسمها خميلة أبداً، ولا خائناً ملعوناً اسمه جماري عازر، ولا مرتزقاً اسمه ميخائيل. أنت النعناعة، بنت قرية أباخيت المباركة، بلدة المتقي أعزه الله وأكرمه، سترددين الشهادة، وتصلين، وتصومين. هل تفهمين؟.... رددي: أعزه الله وأكرمه... أعزه الله وأكرمه.

فهمت، وكان لا بد أن أفهم، ورددت العزة والكرامة للمتقي، وكان لا بد أن أردد، وبغض النظر عن الدين الجديد الذي عرضته عليّ وقد يكون فيه سلوى للنفس، وخلاص حقيقي، فإن النساء الريفيات، القادمات من القرى البعيدة، أو التي حول السور، كن خشنات ووقحات وعنيفات، حتى بلا ثورة ولا جهاد، ولطالما شاهدتهنّ في السوق الكبير، وسوق أبي جهل الشعبي، يحاججن الباعة، وربما يقفزن إلى أعناقهم ويلوينها، ويحصلن على السلع بنصف سعرها المعروض، فكيف لو دخلن السور مجاهدات، كما

يدّعين، ومنتصرات أيضاً، النعناعة، النعناعة، أردد الاسم في ذهني ولا أستطيع تذوقه، النعناعة... النعناعة.

هل سأحمل ذلك الاسم الغريب فعلاً؟

هل سأنسى اسم خميلة الذي أحبه؟ وجماري وميخائيل، ومريا، وأمي الطليانية الجميلة؟

كان المستقبل يزداد عتمة، والأبرار، المنتصرون، الذين سيتقبلوننا لا بد موجودون الآن، وفي أماكن قريبة جداً، بحيث سيهلون مباشرة بمجرد أن تتم الطهارة. حتى أسماؤنا، غير مقبولة، وبحاجة إلى إعادة تأهيل.

كانت معلوماتي عن الثورات الغاضبة محدودة جداً، ومعلوماتي عن الغضب المحمول على رايات العقيدة، حتى لو كانت عقيدة طيبة ومتسامحة، هي أنه، لا بد ستعتريه أهواء ما. هناك من يتقي بالفعل، ويتعبد بالفعل، ويود قهر الظلم فعلاً، ويطلق مبادرة أو ثورة، لكنه لن يعرف أبداً من سيتلقف تلك المبادرة، ومن سيفعلها، وهل ستعمل فعلاً على قهر الظلم، أم تبتكر ظلمها الجديد؟

كانت هناك أمثلة عديدة استحضرتها، أمثلة من التاريخ، ومن الحياة المعاصرة، ونعرف كلنا، كيف دمر الغضب العقائدي أوروبا في عصر من العصور، واحتاجت لسنين عجاف طويلة، حتى استيقظت من جديد.

كنا مستقرين بصفة ودية وناعمة في مدينة السور، نسافر إلى أي مكان نريده، ونعود، أو لا نسافر على الأطلاق. نأكل ما نستطيع أكله، فينا من يأكل لحم الظباء الغالي، ومن يعيش على عصائد الذرة

الرخيصة، ولكن لم يكن ثمة شكوى من ظلم حتى لو كان حادثاً. لم نر دابة تقتات من كلأ دابة أخرى، وما كنا نعلم أن ثمة طحناً موجوداً في الدنيا، سيستخدم لدكنا ذات يوم.

لم أكن أدري ماذا أفعل، وتمنيت لو أن التعليمات كانت في فناء واسع ولجميع السجينات، حتى نستوعبها كلنا، نقبلها قبولاً موحداً، أو نرتعش رعشة واحدة. أسمي حالتنا السجن. نعم، نحن سجينات بالفعل، ومؤكد لن يسمح لنا بأي تفوق خاص، خارج نطاق تلك التعليمات المضنية.

مجدداً تعود الأسئلة السخيفة، السلبية، لرأسي الحائر:

لماذا ينهد الرسوخ هكذا بغتة؟

لماذا يموت أحبتنا ونعيش لنموت، بفراقهم، مئة مرة؟

لماذا لم يأت المتقي وأدوات حربه، بشراً عاديين، ليتحدثوا في السور بأشجانهم، وربما نالوا حظاً؟

وكيف يتم تحويل العقائد من سكك الخير، إلى سكك الشر، هكذا، وكيف تعاد إلى سكك الخير مرة أخرى، إن أردنا إعادتها؟

لا إجابة عن أي سؤال، وفي الحقيقة كانت أسئلة لم تطرح لأحد، لتحصل على إجابتها، ومن المفترض أن لا تطرح بعد الآن. هناك لائحة ستجرمها، مؤكد، ولائحة تسميها الردة، ولائحة تذهب بمن يسأل إلى الهلاك.

كان الليل قد اقترب، وقد خرجت نجيمات الفتية وعادت بعصيدة من الذرة، وكوب من الفخار به ماء، وضعت ذلك أمامي وانصرفت، ثم انصرفت أم الطيبات، وبقيت منحدرة، التي

أمسكتني بغتة، شدتني من شعرى المنكوش وهي تزمجر، قلبت يدي، وقدمي، ورفعت قميصي إلى أعلى، فتشت بطني وظهري، ووركي، وساقي، وحتى أسفل نهديّ اللذين أحسست بهما ضامرين، وفقدا كثيراً من مهارات جذبهما القديمة. كانت تبحث عن وشم، أو صليب منقوش في بقعة ما، من جسدي، بلا شك، ولم يكن ما بحثت عنه بغلظة، موجوداً، ذلك ببساطة شديدة، أنني لم أكن أحب وشم الجسد قطّ، ولطالما انتقدت الفتيات اللائي ينقشن تفاصيل الحب وقلوبه، وبعض خصائص الذكر، فتى الأحلام، على أجسادهن، وما زلت أستخف بمن ينقش معنى العقيدة، أيضاً، ذلك الذي من المفترض أن يكمن في القلب، وينساب عبر السلوك...

أخيراً تركتني، ولم تكن راضية. أشارت إلى صحن عصيدة الذرة، واضطررت أن آكل وكانت المرة الأولى التي آكل فيها من الغلة التي ظلّ أبي يتاجر فيها حتى النهاية، كانت في الحقيقة غلة شعبية، ساهمت في ثرائه، لكنها لا تدخل بيته إلا نادراً.

جاءت نجيمات الشابة، تحمل فانوساً شاحب الضوء، وضعته في الغرفة وذهبت، أعقبتها منحدرة التي كانت لا تزال تزمجر، وقد بدا وجهها الشبيه بوجوه الأغنام، ضامراً جداً، كأنها خفضت من تفاصيله، واختصرته في أنف أو فم، أو عينين. وبقيت وحدي، متفرغة تماماً للشجن، والبكاء وتمني الموت، وأرتعد، ضامة ساقيّ إلى بعضهما، وأشد قميص الغجرية الممزق الذي أرتديه، بقوة، كلما سمعت خطوات تترنح خارج الغرفة، أو شممت عطراً حساساً وشهوانياً، أو تخيلت ظلاً مارداً يستعد ليبرك على عذريتي.

كانت أسئلة التفاهة، كلها موجودة، وتتكرر في ذهني بلا انقطاع: لماذا كل هذا؟ لماذا لا ينتهي هذا؟

فجأة تذكرت شيئاً مرعباً، وارتعدت أكثر، تذكرت أن صديقتي ماريكار، كانت وشمت ظهرها، منذ أشهر قليلة، رسمت في وسطه، زهوراً ملونة تأكلها نار كثيفة، وكنت معها عند شرف الدين، أحد فناني الوشم البارزين في السور. كان في نحو السبعين، شيخاً متحرراً، صعلوكاً، وغزير الإنتاج، وعنده جوع للرسم الناري بصورة لا تصدق، ولدرجة أن يشم البقر والدجاج، وجسده شخصياً، إن لم يجد من يشمه.

كان في ما مضى، مجرد ولد متشرد، يلقب بالدودة، واكتشف موهبته فجأة، وكان قد بلغ الأربعين. كانت ماريكار هي من حدد ذلك الرسم، وألحت عليه، وسألتها آنذاك عن معناه، فقالت:

- هو شعار الخسارة، خسارة الأريج وخسارة الرونق.

- لم أفهم...

قلت وأحس حقيقة بأنني لم أفهم، ولا كان شرف الدين، الذي وشم ظهرها بآلية مطلقة، يفهم هو الآخر.

ردّت:

- لا داعي لتفهمي، اعتبريه وشماً عادياً فقط.

لم أسألها مرة أخرى، وحاولت، في ليالي كثيرة، أن أقرأ الوشم الذي ارتسم في ذهني، وأخرج بمعنى شفاف أو قاتم، فلم أستطع، وخمنت أنها ربما كانت تحب أحداً من دون أن تخبرني، والآن فقدته.

تذكرت وشم ماريكار، وأنا في نار الهلوسة، أراقب الضوء الشاحب، والظلال التي أتوهمها، وأرخي السمع كله، لخطوات النزوات التي ربما تترنح قرب بابي. شعار الخسارات... يا إلهي... الزهور التي تأكلها النار... يا إلهي... لشد ما يمثلنا الشعار، لشد ما يصبح نحن، ونصبح هو... لكن هل فعلاً ستأكلنا النار كلنا؟ أم يبقى بعض أريج، يعطر أجواء المدينة، إن عاشت، واستردت أنفاسها؟

لست متأكدة، والذي أنا متأكدة منه الآن، أن ماريكار فندوري، قد تموت بلا معنى، والنساء الغريبات، الخشنات، يحاولن طمس شعار الجدب في جسدها.

في ما بعد، في اليوم نفسه، ربما آخر الليل أو منتصفه، سمعت صرخات وجع، هناك من يحاول كتمانها، لكنها قوية. وتأكد لي بشكل قاطع، وأنا أرتجف أن ثمة وردة ربما تكون أكلتها النار بالفعل. حاولت الخروج من غرفتي، وخفت، حاولت الإصغاء لالتقاط تفاصيل أكثر، ولم تكن ثمة تفاصيل أخرى. وفي الأيام التي تلت، كانت ماريكار موجوعة، إلى حد ما، لكنها حية وجميلة، وتستطيع أن تبتسم أيضاً.

-٣-

ثلاثون يوماً سيئة مضت، ونحن أسيرات بيت أم الطيبات، زهوراً تتربع في النار، وقد أتيح لنا أن نلتقي في حوش البيت الكبير، أو في الصالة التي عند الباب. أحياناً، نتبادل الوجع، وما سميناه الطرح المؤلم المرح، وكان ضحكاً سطحياً، وغناءً تالفاً، من طرف حناجرنا، بلا أي وقع، سوى أنه يقينا أحياء، أو موتى شبيهين بالأحياء.

كانت أمبيكا بسواس، ممتلئة بحملها، وتحيا بشغف الحوامل كله. كانت تمرر يدها على بطنها المتضخم من حين لآخر، وتقبلها، وربما ابتسمت أو ضحكت في خفوت، أو انزاحت بذهنها بعيداً، تفكر في أشياء أخرى، غير نار السبي التي تشاركنا إياها.

كانت تتخيل مستقبلاً جيداً لمولود سيأتي في موعده، كما رددت كثيراً. افترضت أنه صبي، سمته حريري، أرضعته الحليب المفترض، وعلمته في خيالها أرقى تعليم، وأوصلته لمنصب مبعوث أممي، سيشارك في تهدئة الحروب، ومكافحة المجاعات. ولم تتحدث مطلقاً عن باسيلي، زوجها مؤلف الكتب المثقف، صاحب

المكتبة الوطنية، الذي اختفى أيام إرهاصات الحرب بعد أن بلغت ذروتها، ولا تعرف حتى الآن، إن كان حياً في مكان ما، أم واحدة من تلك الحيات التي قصت رؤوسها، يوم الغزو الكبير. كان مثل أبي جماري، في وضعه المجهول، الفرق هو أن باسيلي لم يظهر على الإطلاق، ولا شوهد أيام تطوع الأهالي للتدريب العسكري، من أجل مقاومة طاعون الهمجية، حين يأتي، بينما أبي حمل سلاحاً نارياً، وانتظر في مخازنه.

كنت أستغرب من قوتها، من جمودها الفذ، بلا أي أثر لدموع ربما هطلت خفية، أو بوادر لدموع قد تصب في المستقبل. أستغرب من جمالها المتأصل، برغم تضخم بطنها، والسواد على خديها، وبؤس الأيام الذي تشاركنا إياه. وكانت تعشق اللون الأخضر كما يبدو، لأن قميصها كان أخضر، الشريط الذي لفت به شعرها، أخضر، والحذاء القماشي الذي تلبسه على قدميها كان أخضر غامقاً ومميزاً.

ماريكار فندوري، بدت يائسة بشدة، كانت جروح طمس الوشم في ظهرها، قد يبست تماماً، ولم تعد سوى آثار خفيفة. وحكت بهمس عن كوابيس لعينة، تغتصب فيها، من رجال أشداء، تأتيها بشكل شبه يومي، وأنها استيقظت مرة، في منتصف أحد الكوابيس ولمحت ظلاً قبيحاً، يتحرك مبتعداً في الفراغ، وتحسست جسدها، ولم يبد قد انتهك، لكن ربما جرت محاولة لانتهاكه.

كانت قوية، وتملك شخصية مميزة كما قلت، ولولا أن كل شيء

غدا مستحيلاً في هذه المحنة، لكانت قد ابتسمت أو ضحكت، أو جلست على ركبتيها تنشد شعراً كلاسيكياً، لتوماس برون، أحد شعراء أوروبا الكلاسيكيين، وكانت تعشق أشعاره، وتردد دائماً حين تلتقيني، في مناسبات كنا نحضرها معاً، أنه أعظم كثيراً، من شاعري ريماس، وبالطبع كنت أحيل ذلك للتذوق الشخصي، ريماس مجنون وعبقري مذهل، وتوماس قد يكون مجنوناً وعبقرياً آخر، وكل واحدة منا تعشق عبقرية مختلفة، وجنوناً لا يشبه الجنون الآخر.

كانت تحتفي بقصيدته هيام أكثر حتى من لقم الطعام الذي لم تكن تأخذ منه طوال حياتها إلا ما يلهي الجوع قليلاً، وبالتالي تظل معشوقة جيدة، وأنيقة لمن يهوون عشق الجواهر:

مساء يوم الإثنين كان قلبي مضطرباً،
نسيت أن أبيع رغبتي القديمة
لأحد ربما يحتاجها،
وأشتري رغبة جديدة.
نسيت أنك حبيبي،
وأنني هائمة بك،
وظننت أن الحمام الذي طار البارحة،
قد عاد في موعده تماماً.
لماذا هناك حب دائماً،
وهيام دائماً،
وسفن ترحل وتعود؟

لماذا لا يوحدون زيّ الرغبات؟
ويكتبون على الحبيبات أنهن حبيبات،
والأمهات أنهن ولدن اللظى
وتسربن خلسة للحب.
مساء الإثنين،
ومن شدة انكساري،
حسبت نفسي جملة ناقصة،
وحسبتك، نقطة على السطر.
لكن لا بأس
فليس هذا الإثنين هو آخر يوم على وجه الأرض،
ولا سجن عشقك،
أقسى من سجون سحرة آخرين.

كانت حسناء فتاة أخرى تعرفت إليها في سرداب ساحة المجد، قبل يوم الغزو الكبير. كانت طيبة، وبلهاء إلى حد ما، وحكت للجميع بمن فيهم المسنين التواقين للمغامرات العاطفية، والمراهقين الجنسيين، الذين اندسوا في السرداب، بصفتهم أطفالاً صغاراً، عن شامة سوداء، كبيرة، توجد في فخذها الأيسر منذ عامين، وابتدأت تؤلمها هذه الأيام بشدة...

كنا نحاول إسكاتها، حين تثرثر في التوافه، ونشدها إلى جانب الصمت فتصمت قليلاً ثم تشتعل من جديد. وقد ذكرت مرة، أن أباها الحمال السابق في السوق، والذي توفي قبل الغزو بعشرة أعوام، علمها شيئين: أن تكون أنثى رقيقة للغاية، حين تحب رجلاً

مخلصاً، وتكون ذكراً ماكراً وقوياً، حين تواجه بمحنة ما، وهي الآن ذكر، بحسب وصية الوالد.

كان جسدها رائعاً جداً، وصوتها متعرجاً، ومغوياً، ولم يكن من السهل اعتبارها ذكراً بأي حال من الأحوال. وحين عثرت عليها في بيت أم الطيبات، بعد أن نقلنا إليه، بدت أميَل للصمت والعزلة، ونبت لديها حقد كبير، تجاه الدنيا كلها، خاصة حين أخبرت منحدرة أنها مسلمة، وليست كافرة، فصفعتها منحدرة بيدها القوية، الصماء حتى سقطت. "كافرة" كانت منحدرة تردد، وأم الطيبات تردد بصوت أكل الدهر معظم نبراته: "كافرة"

على أن مصيبتها الكبرى كما قالت، كانت في أخويها اللذين يصغرانها سناً، فقد اختفيا من السور منذ عام، وكانا مزارعين جيدين، وتوقن تماماً أنهما داخل هذه الفوضى، وربما يذبحانها بأيديهما إن صادف وعثرا عليها.

موضوع حسناء هذا، كان يشغلني فعلاً، أو شغلني في فترة كنت بحاجة فيها لما يشغلني. الفتاة خائفة من الموت، ولم تكن بحاجة لطهور كما أعتقد، لم تكن يهودية ولا نصرانية، أو بوذية، إلا لو كانت عقيدة المتقي، ديناً آخر لم يعرفه البشر السويون بعد.

كان موضوعها يدعو للتعجب، خاصة أن اللعنة موجودة داخل أسرتها، واكتشفنا أن هناك أخريات مثلها، لم يستمع إليهنّ أحد، وربما لهنّ أهل داخل الغليان أيضاً، وكان اكتشافنا الأعظم في تلك الأيام، هو أن كل من رحلت من وسط السوق يوم الغزو، ووضعت في بيت أم الطيبات، أو بيت من بيوت أخرى مشابهة له، عدت

كافرة، وتحتاج إلى طهور كثيف، قبل أن تصبح أداة متعة زوجية لواحد من الأبرار، الذين ليسوا أبراراً على الإطلاق.

حتى الآن لم تبدأ طقوس زيجات القهر، أو المتع العابرة، ولا ندري لَمَ تأخرتْ، وأظن أن الأبرار المرتقبين، كانوا مشغولين بترتيب الدمار الذي صنعوه، وتحويله إلى دمار أشد.

كانت ثمة كنائس مشيدة منذ عقود، ما زالت حجارتها تقاوم الدكّ، كما سمعنا، ولن تتوقف محاولات دكها، ومعبد يهودي، ربما لم ينتهوا من حرقه بعد. كانت ما تزال هناك أشجار خضراء، وساحات فيها ورد أحمر وأصفر وبنفسجي، وربما بيوت جيدة، يتنفس فيها الماضي بعطر الرقي، وقد سمعنا أن ضريح الشيخ "السليواني"، الموجود منذ ثمانين عاماً، ويعد مزاراً طيباً للقادمين من القرى، كما تقام احتفالات أعياد المسلمين حوله، ويدفن موتاهم في بقعة قريبة منه، قد ابتدأت إجراءات دكه، ويرابط جيش من الملثمين، حاملي المعاول بجانبه. باختصار شديد، كانت السور الواسعة، ما تزال بحاجة لجولات أخرى من الأذى، وتنجح الثورة، ويعود المنتصرون ليبحثوا عن مراحيض مناسبة، يستفرغون بداخلها.

كنا نسمع أحياناً، أصوات رجال يقفون عند الباب الخارجي، يتحدثون ولا نسمع حديثهم جيداً، يجادلون، وتجادلهم منحدرة نيابة عن أم الطيبات ذات الصوت العجوز المنخفض، بينما الفتاة، نجيمات، اختفت تماماً، ولم تعد موجودة في البيت، أو حتى زائرة له، وكنت متلهفة لمعرفة هويتها، ولم تبد لي كما قلت، شبيهة

بطقس الثورة العقائدية، الذي هي داخله... وأغلب الظن، قد تحولت هي قبلنا إلى أداة متعة.

خلال تلك الأيام الثلاثين، كنا نأكل بما يقينا أحياء فقط، نأكل الذرة والعدس والفاصوليا، وعصائد الحميض المر، ونشرب من حساء اليقطين الذي روجت له فتوى، قيل أطلقها المتقي شخصياً، بوصفه حساء التقوى الوحيد، ولا بد من شربه يومياً وبأكبر مقدار، وكان كما يبدو من أدوات الطهور الذي يمارس في حقنا، حتى نستعد جيداً لملاقاة الفاتحين.

كنا نتوضأ بماء معبأ في أباريق فخارية، مصنوعة بقبح، نصلي كما علمونا أن نصلي، ونتلو سوراً رائعة، مليئة بأدوات التقوى والورع، وتنظيم الحياة، ولا تمت بصلة لبقية الجو الذي نعيش فيه. وبمرور الوقت، اختفت كل الامتيازات التي قدمت لنا يوم أتينا، وأصبحنا ملزمات بالطهو، وإعداد الشاي، وحساء اليقطين، وغسيل الخرق التي نرتديها، وأضيفت لها خرق جديدة، غير مناسبة، لا بد نهبت من بيوت أو متاجر، لم تعد موجودة. كما أنشئت لنا وظيفة مملة، نتناوب على أدائها يومياً، وهي غسيل قدمي أم الطيبات، وتدليكهما، وتحمل ما تنزانه من عرق نتن، هو عرق آخر العمر.

وحدها أمبيكا، كانت في البداية شرسة إلى حد ما، تقاوم التحولات الجديدة بشدة، متكئة على عبادتها الغريبة المتأملة. وكم من مرة جلدت بسوط من سياط جلد البقر، وجزت خصل طويلة من شعرها الحريري اللامع، أو قرصت أذنها حتى تجمد

بداخلها الدم. ومرة رفستها منحدرة في بطنها، بقدمها الخشنة القوية، وكاد جنينها الذي تعشقه وتتوقع وصوله سالماً، أن يسقط.

كنت أتحدث معها، أترجاها أن تحافظ على الجو عند هذه النقطة، حتى تضع جنينها، ويبدو أنها رضخت أخيراً.

من تلك الأيام، كان ثمة يوم مميز، أخبرتنا منحدرة، أنه يوم مبارك، ولم تذكر لنا شيئاً عن سبب تلك البركة، ولو ذكرت لكنت عرفت، وأعلم معظم أيام المسلمين المباركة، من مخالطتي لعدد منهم في السور، أيام أن كانت وطناً، ولا أعتقد أنه من تلك الأيام.

طلبت منحدرة منا أن نصوم، وكانت تجربة غريبة ومختلفة، أن تتوقف عن المضغ ساعات طويلة، ولا تفقد صوابك. بالنسبة لي لم تكن صعبة أبداً، فقد تعودت على أكل لقم قليلة، وأنا تحت تأثير تذكري لأبي وتذكري لأمي، وللأيام الجيدة التي لم أحسها جيدة إلا الآن مع احتمال الموت في أي وقت، أو أن تطأني الرغبات القادمة لا محالة.

-٤-

في أحد الأيام، ابتدأ ترنح الأذى من حولنا، كما بدا لي، حين أخذوا أمبيكا بسواس، أو الخنساء، كما عدل اسمها، تماماً مثلما سميتُ النعناعة، بدلاً من خميلة، وسميت ماريكار مسبحة، وحتى المسلمات ممن وجدن معنا هكذا بلا كفر، استبدلت أسماؤهن المألوفة، بأسماء أخرى معقدة إلى حد ما، سميت واحدة ذات النورين، وواحدة صهيبة، وأخرى أم عرمان، هكذا...

كان يبدو أن مجد الثورة أو مجد الخراب قد اكتمل، ولا بد من أنفاس النساء لمضاعفة النشوات كلها: نشوة أن تدك بلداً آمناً مطمئناً، أن تقتل أشخاصاً لا علاقة لهم بأي طموح أو غير طموح، ولم يكونوا سوى أشخاص فقط، وأن تسود كخفاش في خرائب مؤسفة. أياً كان، فقد كانت البداية غريبة فعلاً، حين تبدأ بامرأة حامل في الشهر قبل الأخير، إلا إذا كان أخذها من أجل نزوة كبرى أو جريمة.

سمعنا في ذلك المساء طرقاً عنيفاً على الباب وصوت رجل يتحدث إلى أم الطيبات ومنحدرة، وامرأة ثالثة، خمنت أنها

نجيمات التي ربما عادت من غيابها الطويل.

جاءتنا منحدرة بعد ذلك، تركض، وأنفاسها متورمة، طلبت منا تغطية الرؤوس والوجوه، على عجل، والذهاب إلى صالة البيت الخارجية، حيث توجد حصائر من السعف الخشن، مفروشة، ووسائد من القطن يتكئ عليها الزوار، وحيث يوجد واسطة خير، اسمه جمعة العائد، ينتظرنا برسالة من أحد الأمراء.

كانت واسطة خير، وظيفة مستحدثة في نظام الحياة في السور، استحدثها المتقي ومجاهدوه، وتشبه إلى حد كبير، وظيفة السمسرة التي كانت سائدة في المدينة في ما مضى، سماسرة في التجارة، في بيع الأراضي وشرائها، وحتى في الزواج والطلاق إن دعا الأمر. وقيل إن واسطات الخير، هؤلاء، يعينون مباشرة بأوامر من المتقي، وهم من جميع الأعمار والطبقات، ولا تشترط الوظيفة أي نسبة ذكاء، أو شجاعة، أو وجاهة، أو صحة جيدة.

كان جمعة العائد، واسطة الخير الذي عندنا في ذلك المساء، قصيراً وبديناً، وملثماً بشال أسود يغطي رأسه ووجهه، وكان متكئاً على إحدى الوسائد، ولم يغير اتكاءته حتى بعد أن جلسنا كلنا، وكنا عشرين ضحية، على الحصير المقابل له، وعلى الأركان، بينما كانت أم الطيبات، تتكئ على عصا قصيرة، وبقيت مساعدتها منحدرة، واقفة، مشدودة الظهر، والفتاة التي سمعت صوتها الخشن، وظننتها نجيمات، كانت فتاة أخرى غريبة، وفهمنا في نفس اللحظة، أن اسمها زهرانات، وأنها مساعدة واسطة خير، تحت التدريب، وجاءت تتبع الرجل، للمشاركة في هذا اللقاء.

كان جلياً أنهم يبحثون عن امرأة، عن غنيمة نظيفة، أو لعلهم يريدون أكثر من غنيمة، وكان أفضل ما في الأمر، أننا كنا نخبئ وجوهنا تحت قماش كثيف، ولن تكون ثمة فرصة ليرى الزائران وجهاً جذاباً، ويختارانه.

في الماضي، وفي زمن الاستقرار، كنت سأتحدث عن وجهي، أقول بأنه الوجه الأمثل والمطلوب لأي فكرة أو نزوة، أما الآن، فليكن أسوأ، وأسخف وجه، في بيت أم الطيبات وأكون سعيدة جداً.

لن أتذكر أيام مجد جمالي، أيام رونق زينتي، وأكاد بالفعل كما طلب مني أن أكون النعناعة، من قرية أباخيت، حيث ولد المتقي، أعزه الله وأكرمه، ولا علاقة لي بالسور، إلا حين دخلتها ثائرة، ولا أعرف جماري الزعيم، أو ميخائيل جامع الثروات، وأحد أعمدة الكفر.

كنت أفكر بضراوة، وجمعة العائد، واسطة الخير، الذي لم أحب هيكله ولا طريقته في الغطرسة، متكئ على الوسادة، ما يزال، ومساعدته زهرانات، تبدو متعجلة جداً، تدخل إلى غرف البيت وتخرج بلا أي دافع أو سبب، وأم الطيبات العجوز، ذات التسعين عاماً، تعبت من اتكاءة العصا، والآن افتعلت حدة في صوتها الخفيض المتآكل، وهي تخاطب الرجل:

– قل من تريد من بناتي يا واسطة الخير؟

واسطة الخير الآن مستفز كما يبدو، لكن اللثام قوي على وجهه، ورأسه، وتبدو من خلف الرأس، خصلة شعر بيضاء، مضفرة،

كجدائل الصوفيين، وحين وقف أخيراً، كان طويلاً وممتلئاً قليلاً، وليس قصيراً أو بديناً كما تصورت وأنا أطالعه بعيني المشوشتين، حين كان متكئاً...

قال وكان صوته ضخماً، أو ربما ضخّم خصيصاً لهذه الغاية:

- أريد الخنساء.

كان يتحدث عن أمبيكا بسواس، بالطبع.

أم الطيبات صرخت بصوتها الواهن:

- الحامل؟

- نعم

- لكنها لا تصلح زوجة ولا جارية، لماذا يريدها الأمير؟

- لا أعرف... أنا واسطة خير مبتعث ليس إلا.

ردّ، وكان صوته أكثر ضخامة، وتخيلته صوت رعد، أو صوت عاصفة.

بالطبع، لم نعرف من هو الأمير الذي يعرف أمبيكا، وأرادها بالاسم بالرغم من أنها حامل، في شهرها السابع أو الثامن، وليست مغرية على الإطلاق في هذه الفترة، ومتمردة، وكان هناك أمراء عديدون تم تنصيبهم، بعضهم على رأس كتائب تعسكر داخل السور وخارجها، وبعضهم لرئاسة دوائر محددة مثل دائرة الزكاة، ودائرة الرسل، ودائرة المال والتجارة، وأيضاً دائرة وسطاء الخير، ودائرة شراء الذنوب التي يقصدها الجهاديون لدفع المال، بغرض غسل ذنوبهم، كما سمعنا، وكان شيئاً مضحكاً بالطبع، أن تغسل الذنوب بهذه الطريقة، وأن يقرر بشر عاديون من غسلت ذنوبه

ومن لم تغسل ذنوبه بعد.

كان طلب الأمير المجهول لأمبيكا، مخالفاً لجميع الشرائع، إن كان يريدها زوجة... ومخالفاً لقواعد الإنسانية كلها، إن أرادها جارية، أو خليلة، لكن أين الإنسانية في كل ما جرى ويجري حتى الآن؟... قتل وتشريد، ومدينة لا تشبه في وضعها الحالي، أكثر الأحياء عشوائية في الدنيا...

كانت منحدرة، المرأة الريفية الخشنة، صامتة، وأم الطيبات لا تدري، بِمَ ترد، ولم يكن من صلاحياتها أن ترد واسطة خير أرسله أمير، حتى لو أرادها هي نفسها، عجوزاً في التسعين.

لكن من هو الأمير؟ هنا أيضاً لا أحد سيعرف، بحسب قوانين فوضى السور الجديدة، التي عرفتها من نساء يوجدن معنا، ويعرفن كل شيء، حتى راعية البيت لا تعرف، لأن التعليمات، ليست لها وإنما لواسطة الخير الذي يحملها من دون أي جدال، والبيوت الخاصة بالغنائم كما فهمت، توضع لإدارتها نساء مختارات، ينفذن فقط، وكون نجيمات وأم الطيبات ومنحدرة، قلن بأنهن يملكن صلاحية موتنا أو حياتنا، حين تحدثن أول مرة، فقد كان مجرد كلام للإرهاب، ليس إلا، ربما يعذبن واحدة، ربما يمنعن الأكل والشرب ليوم أو يومين، ربما يجبرن واحدة على الركوع وذرف الدم، وقد رفست أمبيكا من قبل، وكاد جنينها يسقط، لكن مؤكد سيحاسبن إن حدث شيء أشد خطورة، كأن تموت واحدة من الغنائم.

ليس مهماً إذن، إن كانت الخنساء - أمبيكا تصلح أو لا تصلح،

المهم أن هناك أمراً بقيادتها لمكان آخر، وربما كان هناك فعلاً من أعجبته من قادة الثورة الكبار، وخاف أن تتعقد أمورها في بيت متواضع كهذا، وسيقوم بتوفير رعاية من نوع خاص، لها وللذي تحمله، حتى تضع، ومن ثم يبدأ مشوار الرغبات معها.

ما أدهشني حقيقة أن المطلوبة نهضت على الفور، ورأسها باتجاه الأرض، لم تتذمر ولم ترفض، ولم تتمرد على أحد كما كانت تفعل في بداية قدومنا، ولا بد أنها تعلمت الدرس، أو خائفة على الجنين حريري، وتأمل ما تزال في أن يأتي في موعده، ويتعلم، ويصبح موفداً أممياً، أو يؤلف الكتب مثلها، ومثل والده الذي اختفى ولا يعرف أحد إن كان حياً داخل هذه الشرنقة، أو مات واستراحت أنفاسه.

لقد أتيح لي أن أقرأ صفحات من كتاب باسيلي **السماء تناديني**، الذي ألفه عن طغيان المسيحية في القرون الوسطى، وكيف كان القس الذي سماه "مستر وحش"، يمارس بنفسه قتل المفكرين الذين ينادون باستخدام العقل، جنباً إلى جنب مع التدين، في الأمور الحياتية.

خرجت أمبيكا، زهرة النار الحامل، تجرجر قدميها، ويبدو بطنها عبئاً كبيراً، أمام ريالة من طلبها، وهو يمتد أمامها، وكدت لولا أن أوقفتني زمجرة منحدرة، أن أندفع لعناقها، فقد تكون آخر مرة أراها فيها. كانت عاشقة الأخضر متفتحة فعلاً، وحتى حين علموها فروض العقيدة الجديدة، تعلمتها جيداً، وباتت تؤديها، كأنها عقيدتها الأصلية...

نعم كانت أمبيكا، أو الخنساء كما سموها، عصرية ودقيقة في كل شيء، وحتى مشيتها التي سارت بها، تتبع واسطة الخير ومساعدته، كانت متعثرة لكنها توحي بالثقة.

كنا نحن الباقيات داخل نار منحدرة، وأم الطيبات، في حالة حداد أو شبه حداد حين انتهى الأمر، ودحرجتنا إلى الغرف، بصوت عنيف، ويدين خشنتين، لا تفرقان بين اللحم والصخر. لم نأكل شيئاً، ولم نشرب حساء اليقطين، رمز التقوى، المقرر على مساءاتنا، وأوشكت من كان عليها الدور في غسل قدمي أم الطيبات، وشمّ نتانة رائحتهما، أن لا تفعل، وحين جاءت منحدرة بمسحوق المسك، الذي يسمونه "ريح الجنة"، ورشته على أجسادنا، لم ننتعش كما كان يحدث سابقاً، كان مجرد مسحوق أبيض بلا هوية، رش على أجسادنا وانتهى الأمر.

آخر الليل، ربما قبل آذان الفجر الذي اعتدنا على سماعه يومياً، ولا نعرف منبعه بالضبط، وننهض على إثره للصلاة، استيقظت على يد تهزني وكدت أصرخ لولا أن تعرفت على ملامح ماريكار فندوري، من شكل ظلها على الحائط المقابل من فعل ضوء الفانوس الشحيح. كانت قد تسربت من مكان رقادها كما يبدو، قالت:

- لم أنم يا خميلة. لم أنم أبداً.

- لماذا؟

- كنت أفكر في جمعة العائد، واسطة الخير الذي أخذ أمبيكا.

- لماذا تفكرين فيه، هل عشقته من النظرة الأولى؟

قلت بتثاقل، وأعرف أن طرحي غير ملائم، ولا حتى طريف،

ويمكن أن يضحك تلك الحسناء، الطموحة.

- لا... كنت أعشقه في السابق، كان بيننا حب سري لم يتسرب لأحد قطّ، لكننا افترقنا بلا ضغينة. كان ذلك قبل الغزو بأكثر من عام. وأستطيع معرفة حبيبي في كل أوضاعه وحتى لو جاء على هيئة امرأة.

نهضت من رقدتي وقد تشوش عقلي، تشوش جداً:

- هل تمزحين يا ماريكار؟ تعشقين جهادياً أصبح الآن من ثوار المتقي؟ وهل لذلك علاقة بوشم الزهور التي تلتهمها النار؟ وشم الخسارات؟

- لا لا علاقة له بالوشم، على الإطلاق، وليس جهادياً من ثوار المتقي يا خميلة، هذا باسيلي أكرم، وقد استرد زوجته، ولا بد لديه خطة للهروب بها من السور.

- باسيلي أكرم؟ معقول؟

- نعم... معقول.

عند ذلك بدأت أستعيد الهيئة المسترخية لواسطة الخير جمعة العائد، وكانت غير حقيقية بالمرة، الصوت الذي بدا مزيفاً، وذلك الاستسلام القوي الذي أبدته امرأة متمردة في العادة، وكان من المتوقع أن تبدي شيئاً من المقاومة...

كان الجهاديون، ثوار المتقي، قساة فعلاً، ومجانين، وغوغاء، وأي شيء متأخر في الدنيا، لكن ليسوا محصنين ضد أن يستخدم غباءهم قبطي مستنير، ويسترد حبيبة، سموها سبية، أو غنيمة، كانت ستضع حملاً صعباً، في بيئة لا تصلح لأن يولد فيها مجرد

سخل. الذي عاش في انجلترا زماناً، من الممكن جداً أن يذهب ليعيش فيها مرة أخرى، والذي دخل بيت غنائم محصناً، وخرج سليماً كما دخل، لن يعجزه الخروج من السور كلها، ومؤكد أن الفتاة زهرانات، كانت غنيمة أخرى، سرقها أو استعارها، ليدعم بها سرقته الأكبر، سرقة أمبيكا.

بكيت... بكيت كثيراً.

- ٥ -

كان ذهاب أمبيكا بسواس - الخنساء، وبتلك الصيغة المبتكرة، الماكرة، ملهماً لنا بشكل كبير.

لم نشأ أن تعرف واحدة أخرى، من سكان البيت، غيري وغير ماريكار، التي اكتشفت العاشق بالطبع، لأنها كانت تملك نزواته ذات يوم، ومؤكد عرفته بمجرد أن لمحته متكئاً تلك الاتكاءة الخاملة، التي لم أحبها... ومؤكد عرفها أيضاً، برغم نقابها الكثيف، ولم يتوقع أنها عرفته، أو ربما توقع واعتمد على كتمانها، لا أدري.

المرأة في رأيي حين تعشق بعمق، تعشق حتى سعال حبيبها، تعشق طريقته في الوقوف والجلوس، والاتكاء، والمشي، والكلام، وربما تعشق صوته الزاجر، إن زجرها، بقدر ما تعشق صوته المحب، حين يضمها أو يهمس في أذنها... لقد غير باسيلي صوته، في الحقيقة، ابتكر صوتاً آخر، بعيداً تماماً عن صوته الذي كان يقرأ به أشعار الرومانسيين الأوروبيين، وحوارت المسرح الضاجة، في المكتبة الوطنية، أو يضحك به، حين لا بد أن يضحك... لقد تلثم، وغطى رأسه، انسجاماً مع المرحلة التي يعيشها، ومن الصعب جداً

التكهن بالطريقة التي وصل بها إلى حيث صدر قرار بتعيينه واسطة خير. مؤكد نحت في صخر الثورة، واجتهد، وعرف ووصل إلى هناك.

"يعيش باسيلي الحبيب الجيد، المثابر" قلت في نفسي، وأكاد أتنفس سخطاً على ميخائيل، الذي لم يعرف كيف يكذب، ويغازل الجهاديين، ويصبح واسطة خير، يقتلعني من جحر أم الطيبات هذا، ومن الأيام القادمة التي سأنتهك فيها شئت أم أبيت.

كان ميخائيل ذليلاً جداً، وواقفاً وسط ذليلين، ورأسه في الأرض، وحتى حين انتبه لي في اللجة، وناداني، كان صوته منخفضاً جداً، صوت نسمة ضئيلة، أخفقت في هزّ فرع شجرة ضئيل، صوت عبد يخاف سيده...

لقد ألقيت بخاتمه ذي الفواريص الخضراء، لأنني خفت من عبء تذكر وقفته الخاضعة تلك، وخاتمه في يدي.

كانت ماريكار القوية قد اهتمت بموقف باسيلي هي الأخرى، واعترفت لي في همس، ونحن نجلس في غرفتي، والليل غريب وطويل، وقد يكون مراقباً بخفافيش ملعونة، أنها هي من تركت حبه، هي من تعجلت إقصاءه عن قلبها، لسبب بسيط هو أنها ملت من الغزل... واستطاعت في أحد الأيام أن تخبره بصراحة، أنها لا تحتاج لرجل، ولا غزل، ولا تفاهات، فاختفى، ولم يظهر في حياتها مجدداً قطّ، وذهبت لتحضر عرسه بكل جدية، وفراغ قلب.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن فتاة تمل الغزل، وتقصي

متغزلاً، والفتيات يتجملن، ويتهندمن، وينفقن أوقاتاً طويلة، في حك الجلد، وتلميع الوجه، من أجل الغزل، ولو كانت ثمة دكاكين في السوق تبيع الغزل، لأشترته النساء الوحيدات اللائي لا يلفتن النظر.

بالنسبة لي كنت بلهاء، وأنا اكتشف مداخلي ومخارجي العاطفية، في بداية مراهقتي، كنت غبية في تفسير الصقيع دفئاً، واليد الأبوية الحانية، يد حبيب ملتاع، ونظرة الصلف أو التكبر، عند كثير من الأتراك الذين صادفتهم، نظرة إعجاب خارقة، لدرجة أن أعشق والد صديقتي، وأرتبك أمام أفريقي مسكين، ساعدني على الوقوف حين تعثرت، وسقطت على الأرض. وحين تعلمت واعتدلت عواطفي، كنت مبادرة بلا شك، أحببت ميخائيل مبكراً وفي أول لقاء موسع قليلاً التقيته فيه، وكنت سأشتري الغزل من شفتيه أو انتزعه بالقوة، إن لم يستجب، وكان أن استجاب، لكن لا فائدة، فلم يكن ذلك كله حبلاً يمكن أن يمتد لينتزعني الآن وأنا في حاجة كبيرة لأنتزع...

بنفس القدر، هو نفسه قد يكون عالقاً في لجة مضاعفة، ويحتاج لإنقاذ.

لكن لماذا رسمت ماريكار وشم الخسارات، ما دامت ملت غزل الرجال؟

على كلّ، لن أسأل مجدداً، ويكفي حالة الوشم التي نحن داخلها الآن، وحتى لو كانت نقشته بلا دافع، الآن له دافعه القوي جداً.

بكيت وأنا أضم ماريكار، وألومها بقليل من الشدة، على ملل غبي، أضاع حبيباً كان سيكون درعاً واقياً في هذه المحنة، لكنها لم تكترث كثيراً وبدت لي متأكدة من شيء سيحدث، في الأيام القادمة، مثل حرب جديدة تتحرر فيها السور، وتعود، أو استيقاظ قوي مما قد يكون كابوساً جماعياً علقنا فيه كلنا.

كان الليل قد تقدم كثيراً، وحساء اليقطين مشعل التقوى قد برد وما زلنا نتجول في الماضي بأقدام الحاضر، ونسعى للتجول في المستقبل بأجنحة لا نملكها ولا نعرف إن كنا سنملكها ذات يوم أم لا.

أخبرتني ماريكار أيضاً وفي همس مضاعف، أن الفتاة شمسان، المسلمة التي ما زالوا مصرّين على تطهيرها مع مسلمات أخريات كنّ معنا، قد ترحل غداً إلى مكان آخر أو ربما إلى أحضان مسخ منتصر، لأن أم الطيبات حلمت بأنها ماتت وحكت لمنحدرة التي أخبرت الفتاة بتفاصيل ذلك الحلم، وكان الحلم بموت أحد في تلك الأيام، وبناء على التفسير الغاشم لتلك البيئة العنيفة، يعني أن لا مجال لبقائه في مكان الحلم ومن المفترض أن يذهب إلى أي مكان، أي ظلام، أي مجهول وقد أرسلوا لأمير وسطاء الخير، ليدبر لها نعشاً شبقياً مناسباً.

قالت ماريكار صراحة إنها تلصصت على اجتماع سري بين منحدرة، وأم الطيبات، وفرت في اللحظة المناسبة قبل أن تضبط.

كانت المساحة التي نتحرك فيها في ذلك البيت ضيقة جداً، وتوجد في آخر الممر غرفتان أحداهما لصاحبة البيت والأخرى

بها منحدرة، وكانتا نهاية مؤلمة للطموحات، إن حاولت أن تحصل على مزيد من الترف، والباب الخارجي الوحيد، محروس دائماً بخصيان أقوياء، يتم تغييرهم بين حين وآخر. كانوا لا يطرحون أسئلة ولا يحبون أن تطرح عليهم الأسئلة كثيراً، ولن يسمحوا لسبية مهما كان إغواؤها، بالخروج، ما لم تكن تصحب واحدة من مشرفات البيت أو واسطة خير، أو رسولاً من رسل المتقي المبثوثين في الخراب بكل أريحية.

في خلال عدة أيام، بعد أن ذهبت شمسان بالفعل، شاكستني أفكار غريبة، وتمنيت أن أدرس الشريعة كعلم أستطيع بمفاتيحه، أن أعرف موضعي من فتاوى المتقي وجهادييه. نعم من المؤكد أن الشريعة تحتوي على كل صغيرة وكبيرة، وقد فسرت بعمق. حقيقة ندمت على أنني لم أتعلم شيئاً من تلك المادة الواسعة، وكانت مراجعها متوفرة في السور، وفي مصر، وقطعاً لم أفعل ذلك لأنني لم أكن أتوقع أن أحتاج لشيء من ذلك العلم الديني، وأنا تحت ثياب عقيدة أخرى، كنت أعرف أبجدياتها جيداً.

الآن أحتاج لمعرفة وضع المرأة الذي تنحدر به تلك الجماعات، داخل مراجع لا بد اهتمت بتدوين وضع المرأة والرجل والمجتمع كافة. فكرت في طرق قد توصلني لذلك النهج، بعيداً عن أي شك. فكرت أن أسأل منحدرة، كي تجلب لي كتاباً ما، وخفت من جهلها، أي سلوك حتى لو لتعلم الدين بجدية وعمق، قد تفسره الريفية تجريحاً للدين نفسه، أو حتى كفراً...

فكرت في أم الطيبات، وآمل أن أصادفها في وضع النهار

العاطفي، كما تقول الأسطورة التي أبت تفاصيلها أن تختفي عن ذهني: أم الطيبات الحانية على الأطفال في النهار، والضبع المفترس الذي يتسلى بالتهام الأطفال، في الليل.... صادفتها بالفعل، في ممر البيت، تتكئ على العصا، وتتمتم بأوراد لا أفهمها، وووقفت أمامها، قلت بهدو، لكن بصوت مرتفع قليلا، لتستوعبه طاقة سمعها الضعيفة:

- أمي، أريد كتاباً في الشريعة، أريد أن أفهم أكثر.

لم أحس بها انشرحت لطلب من المفترض أنه طلب جيد للغاية، وصادر من نصرانية تم تعديلها، لم أحسها قد تضمني أو تزغرد في وجهي، أو تشكرني على حسن طهوري بعد تلك المدة القصيرة نسبياً، التي قضيتها في بيتها، وفي نفس الوقت لم أحسها استاءت أو تكدرت، أو أظهرت أنياب الضبع الأسطوري.

الذي حدث أنها قالت وبصوت خفيض للغاية:

- يكفي ما نعلمك إياه... يا نعناعة... اذهبي... اذهبي.

وذهبت... إلى الفراغ، إلى الوساوس، إلى القيد المضني العنيف.

كان يقيني قد اكتمل الآن بأننا بالفعل عالقين في شرك لا علاقة له بالعقائد، شرك قد يكون نصبه المتقي نفسه، أو نصبه آخرون، بتعديل فكرته التي نبع بها في قرية أباخيت البعيدة.

الذي حدث بعد ذلك كان أغرب، لأن منحدرة، جاءتني في غرفتي راكضة، كانت تحمل سوطاً من سياط جلد البقر، أرقدتني على بطني، وجلدتني في قدمي، جلدات أحسست بطعمها المر في

حلقي وبكيت جداً. كان ذلك عقاباً شائعاً في تلك الفترة، يسمونه التطييب، وكنت كما يبدو بالنسبة لهم، نتنة العقل، ومليئة بالرجس ولن يمسني طاهر حتى أتطهر تماماً، وذلك يسعدني، يسعدني تلك السعادة الباكية.

الفصل الرابع

النار أيضاً

- ١ -

إنها الأيام السيئة.

الأيام الأشد عتمة في حياتي، وحياة السور كلها، وأكثر تعذيباً من تلك التي أعقبت الغزو وضاع فيها الكثير من الأحبة.

الآن ما عدنا تلك الزرازير الصغيرة، المذعورة التي تتعذب في جحر أم الطيبات، تحت رحمة منحدرة الريفية، وخربشاتها المزمنة على جدار حياتنا، فقط، بل تطورت الأمور إلى أبعد من ذلك.

كثيرات منا خرجن إلى شوارع السور، وشاهدن الوجع مباشرة، من دون وصف وسيط، شاهدن البيوت المهدمة، والأشجار المجتثة من عروقها، والحرائق التي ما زال رمادها يتجدد باستمرار، وشاهدن العقارب والثعابين تزحف علانية، والقطط والكلاب الضالة، كسيرة الجناح، بلا مواء أو نباح، أو حتى قمامة فيها رائحة طعام. كثيرات نودين إلى نزوات كبيرة، في أماكن مختلفة، داخل السور، وخارجها، بعضهن تزوج لأيام قليلة وسرّح، وكن أدوات متعة لنزوات متوحشة، كما حكين بهمس، وهن يزلن القمل عن

شعورهن، ورائحة السخافة عن أنفاسهن، ويهرشن أماكن خاصة جداً، تعرضت للإيذاء، من دون رحمة. وبعضهن، خاصة ممن لم يكتمل طهورهن في عرف أم الطيبات ومنحدرة، أو ثمة شك في اكتماله، أخذن كجواري تافهات، بلا مهور ولا كرامة، تم إدراجهن في الخدمة الشاقة لأيام، وأعدن للبيت من جديد، ليحكين بهمس أيضاً، ونسمع، ونرتعد، ونستفرغ.

كان وضع المرأة بائساً، تأخر به الغزاة، قروناً إلى الوراء، ولا بد زحف الغوغائية ماض في طريقه، ليطال نساء السور كلهن. وأعني من نجا منهن من النار الأولى، ولم يعد وسخاً، أحرق ودفن.

كان بيت أم الطيبات، أعني بيتنا، وكذا بيوت متعددة في السور، بمثابة مضخات جيدة، تضخ النزوات، لقادة لا نعرف حجم تقواهم. وشخصياً، وقطعاً تشاركني السور الأخرى أي التي خارج ثورة المتقي، لا أعتقد أنهم أهل تقوى بالفعل، وكل ما عرفته واستوعبته من الدين الذي حملوه على رؤوس السيوف، ودكوا به السور، حتى الآن، يبرهن على أنهم بعيدون تماماً عن تلك التقوى الواضحة في معناها. ربما كان المتقي، كما قلت، صاحب فكرة صوفية، أو ملتزمة، ربما يوجد قادة زاملوه ويلتزمون بنهجه، فقط معظم من لبوا النداء، واستعروا به، لم يكونوا مؤهلين قطّ لمثل تلك الأفكار، المفترض أنها مضيئة، وأظلمت بشدة.

بالنسبة لماريكار فندوري، فقد كان حظها هو الأسوأ بين

الحظوظ التي قسمت لنا، حتى الآن، كما أعتقد وتبعنا تلك الحظوظ طائعات، لأن لا حلّ سوى اتباعها...

كان جاء إلى بيتنا واسطة خير اسمه سامع حجيري، وقيل من بدو قبيلة آل بطاح، المتناثرين حول السور، رعاة للأغنام، في الغالب، وأصحاب مهارات خاصة في علاج السحر، ولدغات الثعابين والعقارب. كان قصيراً وضئيلاً جداً، ووضح بصوت صغير، يشبه بنيانه إلى حد ما، ونحن نراقبه في صالة البيت، أنه جاء لمرافقة مسبحة، التي هي ماريكار، لتزف إلى أمير من أهل السور القدامى، كان يعرفها، ويتشرف أن تكون زوجته الرابعة، في سلسلة زوجات اقتناهن حديثاً، بعد النصر الكبير.

أضاف واسطة الخير كلاماً إنشائياً كثيراً، بعضه شعر حماسي، وبعضه نثر منغم، لا علاقة له بالموضوع الذي جاء من أجله على الإطلاق. وبالطبع وحسب القواعد، لا أحد يطالبه باسم الأمير الذي أرسله، ولا أحد هنا سيعرف من هو، إلا إذا عادت ماريكار مرة أخرى، مطرودة من بقايا متعة حدثت وانتهت، وهذا أمر وارد الحدوث، وليس مهماً على الإطلاق.

الذي حدث أن ماريكار انتفشت وغضبت، وامتلأ وجهها ببقع الرفض كلها. والذي حدث، أن منحدرة ربطتها إلى وتد ضخم، استحدث منذ أيام فقط، وكان مغروساً في حوش البيت الخلفي، وبدأت جلدها بسوط غليظ، من جلد البقر، مخصص للتطهير العنيف، ونحن نصيح، لا نطالب منحدرة بالكف عن الإيذاء، ولكن نطالب ماريكار أن ترضخ. وتلك اللحظة اقتربت من أذنها

وقلت لها، ربما كان ينتظرك عاشق مثل باسيلي، وربما تجدين وقتاً للتفكير والهروب من الجحيم في السور وما حولها، فرضخت وتوقف الجلد.

واسطة الخير سحب الوردة الملونة، الطموحة إلى حمار كان مربوطاً خارج البيت، واعتلى فرساً واسعة الظهر، وعليها سرج مذهب، ثم مضى.

للمرة العاشرة كنا نبكي، نتحسر على ذهاب تلك الزهرة الجميلة. اللائي ذهبن في جولات الزيجات المتوحشة السريعة، وعدن، كن منكسراتٍ، ولا يقلن شيئاً واللائي ينتظرن الدور مثلي، كن يولولن في صمت. وسألتني طائعة، التي عدل اسمها إلى رقية، بالرغم من أنها لم تكن نصرانية ولا بوذية ولا يهودية، وتحمل اسماً عادياً ومنتشراً في السور، فقط صنفت من أذيال الكفر، وكان هذا هو التصنيف المعتمد رسمياً من جهاديي المتقي، ليوصف به كل من كان من الملة، لكنه في الجانب الآخر من الحكاية. الجانب المستنير من النص.

سألتني إن كانت لديّ خطة ما، وأسعى لتنفيذها؟

كنت أعرف أن دوري اقترب بشدة، وكنت موقنة تماماً أنهم لم ينسوني ولكني أنتظر أميراً قاسياً، قطعاً في مهمة خارج السور، وقطعاً أنا مكافأته. وحقيقة لم تكن في ذهني أي خطة، وكلما اقتربت من لحظة الانتحار بقطع عروق يدي بسكين، أو حرق نفسي بنار الطبخ الذي أجبرت على ممارسته، ولم أكن أعرف عنه شيئاً من قبل، تراجعت، ولا أدري لماذا أتراجع وعندي من اليقين،

بأن الحياة هنا، وبهذه الطريقة ليست حياة على الإطلاق.

قلت:

- لا حتى الآن لا.

وبكت طائعة. كانت تعلم أنني تعلمت في مصر، ولا بد ظنت أنّ في رأسي المعطوب حكمة، أو حلولاً ملتوية لمعضلة وجدنا فيها... اقتربت مني وقالت همساً بأنها على وشك ارتكاب جريمة، وعليّ أن أساندها.

كانت ملامحها قاسية في تلك اللحظة، ملامح أنثى أرغمت على الموت درجات بعيدة، وتعود في كل مرة أشد دمامة في الرغبة، وأعني رغبة أن تميت أحداً. لقد خفت حقيقة في ذلك اليوم، خفت من الدمامة الواضحة التي لمستها في الصوت والوجه المتجدد بحلكة، قلت لها: موت أم الطيبات لا يقدم أو يؤخر، موت منحدرة، لا فائدة منه أيضاً، والمسألة ليست شخصاً، أو أشخاصاً عدة، ولكن طقساً، فكراً مؤلماً، لا علاقة له بالآخرة التي يتحدث عنها في كل خطوة.

الفتاة لم تكن تسمعني قطعاً، ولا سمعتها تعارضني أو تتفق معي حتى وذهبت من أمامي، وأحسها ستسقط من فرط ثوران الدم.

في اليوم التالي لم تكن موجودة في البيت، وكانت أم الطيبات ومنحدرة، عاديتين، لا يبدو أنهما تعرضتا لهجوم، بينما كان الخصيان المكلفان بحراسة البيت في تلك الليلة، نائمين بعمق، وقد اختفت الحراب التي كانا يتسلحان بها.

كانت حادثة عادية، في سجن موحل مثل هذا، إذا ما قيست

بمقياس الملل والتعب والتوق للإفلات، واستعادة الحياة، وفي الوقت نفسه، جريمة كبرى عقوبتها الجلد حتى الموت، أو الاقتراب من الموت، إن صنفت: زانية فرت للقاء زان، أو الحد بالسيف، إذا ما أدرجت تحت عنوان: ذيل من أذيال الكفر، فرت لملاقاة الكفار... وهذه التهمة الأخيرة، ما كنت أخشى أن يحدث.

كنت وحيدة، بلا ماريكار ولا أمبيكا بسواس، التي فر بها زوجها الوفي، بالرغم من وجود فتيات أخريات، ما زلن عالقات في نار منحدرة، والآن أشفق على طائعة، الفتاة المجنونة الطائشة، إن هي سقطت في حفرة من حفر التربص التي تعج بها السور، المنهارة في كل نواحي الحياة، إلا التربص. كنت أعرف أن أهلها من سكان المدينة، وربما ما زالوا أحياء، وقد تذهب للبحث عنهم.

بعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة، التي اجتهدنا لنسيانها، ولم نستطع، وبعد أن خرجت منحدرة من البيت عدة مرات وعادت، خلال تلك الأيام، مستخدمة حماراً تتنقل به عادة، ويمسك بحبله خصي، كانت ثمة ثلاث عربات تجرها الحمير، واقفة عند الباب، يحرسها عدد من الملثمين، حاملين الحراب والسيوف، قطعاً تحسباً لفرار أي واحدة منا. أمرنا بتغطية الشعر والوجوه، جيداً، وأدخلنا تلك العربات المغلقة بالخشب، وبعد أكثر من ساعة من الدوران في الخراب، ومشاهدة الجوع والعطش والفقر، من فتحات صغيرة في الخشب، وصلنا إلى ساحة المجد، أو ما كان سابقاً ساحة المجد، وكانت ردمت أجزاء كثيرة من سراديبها،

وعمقت أجزاء أخرى، سميت آبار الشيطان، وأحاط بها الملثمون من كل جانب.

أنزلنا من العربات، وأجلسنا على الأرض، نبعد قليلاً عن خلق كثيرين، كان معظمهم ملتحين وملثمين. كانت ثمة نساء أخريات موجودات، كلهن مغطيات الوجوه، وغالباً ما كنّ من الثائرات القادمات مع المتقي، أو ربما من بيوت غنائم أخرى، من تلك المتعددة، في المدينة.

لم نكن نعرف الهدف من تلك المكرمة الغريبة، بإخراجنا من ظلام البيت، ووضعنا في هذه الساحة التي طالما تنفست فيها قلوبنا، وطالما كانت قصص العشق تتناسل فيها، بكل زخم الرومانسية المجيدة، ولطالما قرأت لميخائيل، في ركن من أركانها، وعلى ضوء قمر نعسان، نبضات من قصائد ريماس العظيمة:

اعذرني سيدي
اعذرني حقيقة،
كذبت عليك حين تذكرتك بالأمس.
قلت في الذكرى، التي هي كذبتي،
إنني لا أتذكرك،
في حين كانت المناسبة تذكري لك.

منحدرة بدت جامدة أكثر، بدت كحائط صخري، أم الطيبات لم تحضر، وشكت من ألم في الظهر، ليس لي بالطبع ولكن لمساعدتها، وسمعت شكواها.

فجأة دخل إلى وسط الساحة جمع من الناس، كان فيهم شيخ ضامر العظام، ومحني الظهر، بشكل واضح، وعدد من الرجال العراض، الملثمين، وكانوا يجرون امرأة مغطاة الوجه، ومقيدة اليدين، إلى خلف ظهرها، ترتدي جلباباً أسود قاتماً، وتتعثر كثيراً في المشي، ويجرونها.

أوقفوها مواجهة لنا، ولم نستطع تبين ملامحها بالطبع، لكن شيئاً في وقفتها وارتعاشها، ومحاولاتها الخلاص، ذكرني شخصاً أعرفه، ولم أستطع تذكره قطّ.

كان أحد الملثمين أطول وأعرض من الآخرين، وقد خرجت لحيته بيضاء، جهمة، ومستفزة من تحت لثامه الأسود. كان يرتدي زياً كاكياً، مما يرتديه عساكر الجيش، في العادة، لكن لم تكن هناك رتبة مثبتة على كتفيه، توحي بمجد عسكري.

كان يحمل سيفاً لامعاً، أخرجه من جرابه، ورقص به بغتة في وسط الساحة، كمن يمارس طقساً... والساحة كلها تصرخ: الله أكبر... أعز الله المتقي... أكرم الله المتقي.

أحسست بأن كارثة على وشك الوقوع، انقبض قلبي فجأة، جف ريقي، وبدأت أرتعش. تلفتّ حولي أبحث عن سكينة أو سند، كان الصمت مسيطراً والنظرات كلها مسمرة في المشهد.

فجأة توقف الرجل عن الرقص بالسيف، وواجه المرأة، وهو يصرخ:

- تقرين بأنك ذيل للكفر يا امرأة.

لم تجب ، وأحسها ستسقط.

- تقرين بأنك تركت بيت الطهر ذلك، لتلحقي برفاق الإثم.

لم تجب الفتاة...

- تقرين بأنك ملحدة، وضد إمامنا المتقي، أعزه الله وأكرمه؟

لم تجب، وهدر الجمع الملتم، وهدرنا معهم برعب:

- أعزه الله وأكرمه.

التفت إلى الشيخ الواهن، المحني الظهر، سأله في فظاظة:

- أنت والدها يا شيخ، هل تعفو عنها؟

كانوا بعيدين عنا بمقدار لا يسمح بقراءة التفاصيل، فلم أستطع أن ألمح شيئاً، مثل دموع أو قسوة على وجه الرجل العجوز، وأظن أنه نطق، ولم أسمع ما قاله، وبدا خائفاً جداً.

في اللحظة الأخرى، اقتيدت المرأة إلى حفرة كانت خلف المشهد ولم ننتبه إليها من قبل، أدخلت فيها بسواعد ثلاثة من الملثمين، وردم جسدها، بسرعة غريبة، ثم هوى السيف على عنقها ووو...

يا إلهي، كان رعباً مضاعفاً، وقد أوشكت أن أفقد حواسي، وفقدت فتيات عدة حواسهن بالفعل. لم أستطع أن أنظر أكثر، وأحسست بمنحدرة قريبة مني وتتنفس بانتشاء... لا أدري كيف يتنفس أحد بانتشاء، لكني أحسست بالنشوة في أنفاسها. وخيل لي أن تلك الأنفاس تغني أو ترقص. مددت لها يدي لتساعدني على الوقوف، وأزاحتها بجفاء، ثم نهضت وابتعدت.

في الطريق إلى بيت أم الطيبات، أو مأوانا الطاهر، كما يعتقدون، بالعربات التي تجرها الحمير، وبنفس الحراسة القوية، لم تكن

إحدانا تملك وعياً كاملاً، أو حتى قريبة من الوعي الكامل. وشخصياً أصبت بما يشبه شلل المخ، لدقائق، ثم استوعبت: "البيت الطاهر؟"، يا إلهي إذن تلك التي ذبحت بالسيف، لا بد فرت من بيت شبيه ببيت أم الطيبات... أحسست أنني لا أحد، وسمعت واحدة اسمها ثريا، ويلقبونها بالقصبة لشدة نحافتها، وهي أيضاً مسلمة، ما تزال ملطخة بالشوائب بحسب تفسير نص المتقي، سمعتها تهمس ووصلني همسها كأنه رصاص:

- إنها طائعة، أختنا التي فرت منذ ثلاثة أيام.

- طائعة؟

حتى استغرابي كان مرهقاً، مكدوداً... طائعة؟

- نعم للأسف

ردت الفتاة، ووجهها ميت.

- لا بد أنها ذهبت تبحث عن أهلها، وعثروا عليها أثناء بحثها، وجاءوا بوالدها العجوز، مجبراً ليوافق على ذبحها.

أضافت، وقد أصبح صوتها، سراب صوت.

هل هذا معقول؟ هل هذا ممكن؟ هل هي بالفعل فكرة من سمي المتقي، لتطهير المكان من الشرك، وبذر المساواة والعدل؟ أم فكرة منحرفة، استخدمها أشخاص غير مؤهلين لتلقي الأفكار، وذبحوا بها فتاة من ملتهم ولا ندري من ذبح غيرها؟

كنت أكرر أفكاري وتساؤلاتي ولا أستطيع إلا تكرارها، لمئات المرات، حتى تحين لحظة الخلاص.

كانت المسألة غاية في الصعوبة، أعني مسألة الإفلات من فخ

الموت، ولا بد من ترتيب الأفكار جيداً قبل التفكير في أي خلاص.

التي توضع في بيت يعتبر طاهراً، وبغرض تطهيرها، لن تخرج إلا إلى بيت أحدهم، أو إلى قبر، حتى التي كانت تبحث عن أهلها المفقودين، لتلتحق بهم، لم تنج... إذن الخلاصة السهلة: لن ينجو أحد، أقصد لن تنجو أي واحدة، مهما اخترعت من الحيل.

كنت الآن على رأس الغنائم النظيفة، وسأطلب في أي وقت بالتأكيد، وقد قررت أمراً، أن أذهب بالفعل، لعلي أعثر على شهوة طيبة، ترثي لحالي وتسامحني. لعلي أتعثر بقبطي كان مديناً لوالدي بشيء، وتبدل وتلثم، ويعبر بي إلى أي برّ، لكن الأقباط، ومن على شاكلتهم من الكفار، حتى لو تبدلوا، لن يكونوا أمراء ولا قادة جيوش، ولا حتى خزنة للمال، وغالباً ما يكونون رسلاً يحملون الرسائل، بين السور والقرى المحيطة، أو بين القادة وإمامهم، أو وسطاء خير، في ما يتعلق بالغنائم، كما جاء باسيلي أكرم في هيئة جمعة العائد، وفي الغالب خدماً أو حراساً للدواب.

كانت الصدمة عنيفة، وإن صح أن التي ذبحت أمامنا هي طائعة، فلا أعرف ماذا سأفعل"، ولا كيف سأجلس وآكل وأنام في بيت ما تزال أنفاس الفتاة عالقة فيه، ثم ماريكار فندوري...

أين ذهبت ماريكار؟ وهل ما تزال طموحة، وقوية، وتحتفظ بجسدها ناضجاً، ومحصناً، أم أنها لم تعد كذلك؟

مهما يكن، فقد كنت أثق في قدرة ماريكار على صياغة حلولها الشخصية، ولن أفاجأ إن عرفت بأنها أفلتت من كل شيء وظلت ماريكار نفسها في زمن لم يعد أي شخص هو نفسه.

سأغامر وأسأل منحدرة عن السبب في تعريضنا لتلك الصدمة، في جعلنا نشاهد أختاً مسكينة تذبح، ولن ترد منحدرة، وربما تزمجر أو تعتبرني ناقصة طهر، ما أزال، وربما أرسل للنبع الكبير، حيث يغسل العاصون بأدوات لا تتوفر في البيوت العادية. نعم، سمعت بالنبع الكبير، وسمعت بما يحدث فيه، من فتاة دخلته وعادت شبه خرساء، ولا أرغب في دخوله، لا أرغب.

ـ ٢ ـ

لم أصدق قطّ أن هناك من عثر عليّ في تلك اللجة التي من الصعب أن يعثر فيها أحد على أحد، وإن عثر فلا بد من الحذر أو الضياع كما حدث لطائعة، الفتاة الطائشة المسكينة، الزهرة التي أكلتها النار، وبكيناها بسخاء، وما زلنا نبكيها كلما تذكرنا رأسها الصغير، الغزير الشعر، حين انكشف غطاؤه، وهو يطير بشفرة السيف، وقوة ذلك الملثم العنيف.

لقد خطر في بالي شيء ربما هو منكر أيضاً، ولم نعد نستطيع التفرقة بين المدح والقدح، والرجس والطهر، والخير والشر، والعدالة والجور. كل حكمة تأتي في ثياب نقمة، وكل مرض في ثياب شفاء من الأمراض.

الذي خطر لي أن يحاول شخص معتدل، وخائف من سؤال الرب، أن يسعى لملاقاة المتقي، وسؤاله عن الحقيقة، التي لا تبدو ظاهرة وسط ضباب الفوضى المسيطر، واحد من الذين يرون ويسمعون ولا ترضيهم نبرات السيوف وهي تخاطب المساكين والعدالة الفجة وهي تكتب الكفر والإلحاد على كل ورقة ليست

من أوراق نص أباخيت الأصلية.

كان أهل السور أمة متحدة ومسالمة، ولا تستحق هذه الإبادة بأسلحة الدمار التي ربما ارتدت ثياباً مختلفة عن الثياب الأولى لفكر المتقي.

السؤال الصعب في هذه الحالة: هل المتقي موجود في السور فعلاً؟

وإن كان ذلك حقيقة، يأتي سؤال أصعب: من هو الشخص الذي يمكن أن يذهب؟

ومن هو الشخص القريب من المتقي ويتطوع لنصرة أعداء المتقي؟ أو فلنقل الذين ليسوا في نفس المركب مع المتقي، ولكن في مركب آخر قد يحاول إغراق مركبه.

كانت فكرة ساذجة للغاية، وألاحظ منذ تعقدت الحكاية، ووظفنا مضخات للنشوة، أن معظم أفكاري ساذجة، وكل شيء أقترحه في سري، أجده مجرد سخافة.

لا أحد يمكنه مساعدة خميلة النعناعة، أو شموس المحبطة، أو زمام الغجرية، أو بهتة راعية الأغنام، أو أي واحدة عالقة، أو أي واحد عالق هو الآخر في فقرة مهلكة من فقرات الحكاية.

لقد سمعنا كثيراً أن العاصمة قد استيقظت، وسترسل جيشاً مترفاً بالسلاح وعدد الجنود الذين فيه، وسيصحو المتقي وجلادوه من حلم سطوتهم إن عاجلاً أو آجلاً. سمعنا من فتيات خرجن وعدن، ومن خصيان كانوا يتناوبون الحراسة على البيت، وتدفعهم صدورهم العطوفة أحياناً إلى التدخل في الشأن اليائس للنزيلات،

فيتسربون إلى الداخل ويمنحون واحدة محبطة، فرصة أن تبكي على صدر أم، وواحدة تود أن تتعرى بلا مناسبة، فرصة أن تفعل ذلك أمام خصي شبيه بأمها أو أختها الكبرى.

إذن وفي الوقت المناسب، وحين ابتدأت أم الطيبات تهتم بزينتي، وتسريح شعري، وملمس جلدي وجربت على جسدي ملابس فاضحة ذات يوم ونزعتها بسرعة، وحين بدأت منحدرة، تسألني عن وقت الحيض وهل يأتي بصفة منتظمة أم متقطعاً؟ وقد عرفت بأن موعد ذبحي قد حان، ولا بد ثمة واسطة خير وغد، يحمل أمراً بإهدار عذريتي. في الطريق، ظهرت الأم جويرية، الأم التي تعرفت إليها في سرداب ساحة المجد، أيام إرهاصات الغزو القوية، واحتضنت جنوني ودلكت جسدي ومشاعري حتى هدأت، وكانت بمثابة شفاء جيد لكثيرات أنهكهن الانتظار، تلك الأيام. لقد كنت أظنها من الوسخ الذي أحرق يوم الغزو، لكن الأمر لم يكن كذلك، لم يكن كذلك قطّ.

في صباح كان ماطراً بعض الشيء، بالرغم من أن موسم الأمطار لم يحن بعد، وبعد أن أنهينا الفروض، وقبلنا رأس أم الطيبات، وتمنينا لها طول العمر كإجراء روتيني تعودنا عليه كل صباح، منذ قدمنا، أعلن أحد حراس البيت بأن أماً جليلة، في الخارج وتود الدخول.

كانت الفروض الدينية، ممتعة إلى أقصى حد وتمنح الراحة، والرسوخ الروحي، بينما تمني طول العمر لعجوز في التسعين، بدا لي طقساً أبله، وسخيفاً، ولا يمت لواقع الحال بصلة. لن يعيش

أحد بجدية، أو حتى بمزاح بعد سن التسعين، حيث تذبل خلايا الذهن، ويتوقف نشاطها تماماً، وتصبح الحواس الخمس، مجرد بقايا حواس خمس، تعمل حيناً، ولا تعمل في أغلب الأحيان، وهذا ما يبدو جلياً على أم الطيبات، هي تسمع ولا تسمع، ترى ولا ترى، وحين يخرج صوتها من الحلق، أخالها ستشكره على خروجه.

أم الطيبات هي في النهاية، ظل منحدرة وليس العكس، ولو ألغيت منحدرة في أي لحظة لما عاد لبيت الغنائم هذا هيبة ولا طعم قاس، ولربما فرت غنائمه إلى الطريق، أو تسلم الحراس الخصيان دفته، لكن الخصيان ليسوا أهلاً للثقة المطلقة في النهاية، وأقرب للقوادين منهم لرعاة النساء الضعيفات، حتى يحين وقت التحاقهنّ بفراش المنتصرين.

من الخصيان الذي دخلوا البيت مراتٍ عدة، ودائماً في عدم وجود منحدرة، ومنحوا بعض البائسات أحضان أمهات وأخوات، واحد اسمه الغازي، ويفضل أن يطلق عليه لولو، تيمناً بامرأة متمردة، من بنات الأسر الكبيرة، كان يحرسها في مكان ما من جزيرة العرب، وفرّت أثناء تساهله في حراستها، مع تاجر يمني جوال، كان يبيع العسل، واضطر أن يفر هو الآخر إلى بعيد، هرباً من الموت، حيث يعتبرون الخصي المهمل، جسداً ملعوناً، وروحاً ميتة لا مجال لها أن تحلق في الدنيا، بأي صورة من الصور، كانوا يربطونه إلى جذع شجرة، ويتركون الأشرار يتناوبون رجمه حتى يرحل...

كان الغازي - لولو سخياً في أحضانه وكلماته المنعشة، ينتقي

أفضل التعابير الدنيوية، ليدلقها، على الأسماع، وأنعم اللمسات، ليلمس بها الفتيات الراغبات في لمسات عطف، كان يقول: يا نوارة... يا ندى... يا أحلى البنات، يا عروس الملوك، ويغني بصوت أنثوي خال من كل عقد الرجال، وسخافاتهم، ويوعز لواحدة رائقة المزاج، أن ترقص، ويرقصها بيديه القويتين. وأبدى استعداده التام، لمنح خدمات الأحضان لأمنا، أم الطيبات، ولمنحدرة العنيفة أيضاً لو أرادتها.

لقد كنت مهووسة بالمعرفة في زمن مضى، ويدهشني كل جديد أصادفه، وأردت أن أعرف حكاية الخصي الغازي، أو لولو، من بدايتها، وكيف تحول إلى شبه امرأة، وكيف وصل إلى هنا والتحق بثور الخراب، حارساً للغنائم، ولم تكن الفرصة كبيرة، لأن منحدرة كان لها أنف حساس يشم اللعنة، حتى وهي غائبة، وتأتي لتتقصى بعد ذلك، وأحياناً كان أنفها يخترع اللعنات، وتصدقها. ولا أدري هل كان لولو صادقاً فعلاً حين صارحني همساً في إحدى المرات، برغبته في اكتساب أخوتي، ومساعدتي للخروج من النار، أم مجرد كلام عاطفي، لن يصبح حقيقة.

لقد اعتبرت تهدجه الهامس تعاطفاً جيداً، لكن لن يستطيع أحد مساعدة أحد. حتى هو نفسه كان داخل النار مثلنا، ولن يسمح له بأي تحيز للعاطفة، بعيداً عن حراسته لبيت الغنائم، ولو ضبط وهو يغني ويرقص، ويعد غنيمة بمحاولة تحريرها، سيكون تحت حد السيف هو والغنيمة، والفتيات الراقصات معه.

يا إلهي... ارتعبت عند تلك الفكرة، وأصبحت أفر إلى غرفتي

كلما دخل إلى البيت خلسة، ولا أنظر إلى وجهه، إن صادف وواجهته أثناء خروجنا من البيت لنشهد عرضاً دموياً، أو جلداً بالسوط لمن ضبطوا مخالفين بحسب نصوص المتقي، وكانت تلك من الفرائض التي أقحمنا فيها قسراً، ولا نستطيع التنصل.

أيضاً كان "العمار" خصياً آخر، أراد أن يضع بصمته في بيت أم الطيبات وربما يتجاوز البيت إلى مجهول بعيد، لكنه لم يستطع. كان طيباً وسخياً في الضم والتقبيل، ويحفظ الشعر، وجزءاً من حكايات "ألف ليلة وليلة" التي قرأت بعضها، أثناء ولعي بالقراءة، ويعتبر المرأة، أصل الوجود، وأنه شبه امرأة، لحسن حظه، ولو كان الأمر بإرادته لتحول لامرأة كاملة. كنا نحاول الاقتراب منه، بعكس الغازي الذي ترعبنا أفكاره، لكن العمار، للأسف، لم يمكث طويلاً في حراسة خامات النزوات، أمام بيت أم الطيبات، ومن تلك الوظيفة يتسرب لعناقنا، فقد اختفى في أحد الأيام، ولم يعد بعد ذلك أبداً، وبعد كثير من التردد سألت عنه الغازي، فرد ببرود:

- مات بالحمى.

أظنني بكيته، أظنني بكيت نفسي وأنا أبكيه، بكيت السور كلها، وفكرت في الحمى كثيراً. مؤكد كانت ناعمة، وتزهق الروح بسلاسة وخفة، بعكس السيف المرعب الجبار. لا أحد منا ينسى رأس طائعة الذي طار من ضربة واحدة واستقر في العدم.

وعلى عكس ما يمكن أن يحدث لأحد من تكرار رؤية الدم، ليبتكر صلابة ضده، كنت أزداد هشاشة في كل مرة، وأكاد أسقط

حين تسقط رأس بفعل السيف، أو يتجلط الدم على ظهر محكوم، جلد.

كانوا يغطون رؤوس المحكومين عادةً، ولا تسمح المسافة بين الوسط والمكان الذي نجلس فيه، بالتعرف على أحد، لكن هناك دائماً من يتعرف على ضحية ما، ربما من شكل هيكلها، من ظلها وهو يسقط، ومن ارتباكها وهي تواجه الموت أو الرعب، لذلك لم يكن عبيد المشاء، حامل الرسائل الشهير الذي لبى نداء في الحلم، بعد تقاعده، وخرج لمحاولة إيصال معاناة السور إلى العاصمة، نكرة قطعاً وهو يقتل، بعد أن اقتنصه الجهاديون في أحد الكهوف الجبلية، يستجم، أثناء رحلته لنقل وقائع الحصار للعاصمة. جاءوا به محكوماً بموالاة الكفار، ومربوطاً بالجنازير، وعرفته السور كلها، ليس من ظله فحسب، ليس من وقفته، ولا ملامح جسده، التي تبدو سرابية من بعيد، ولكن من صوته المبحوح المميز، حين صاح:

- يسقط الظلم... يسقط الرعاع.

ثم مد عنقه للسيف، ولم يستطع أحد أن يبكيه، لأن بكاء المرتدين ردة، والردة عقوبتها نفس المصير الذي ناله.

وشخصياً تعرفت على الخصي الغازي - لولو، وكان ما يزال مصراً على صداقتي، وملتصقاً بي بطريقة مزعجة ومرعبة، في كل فرصة سانحة، كان قد تم اقتناصه في السوق، الذي ما زال مهدماً وشحيح البضائع، كما سمعنا، ولم يكن في نوبة حراسة، ولا يدري ما السبب في جلده، حين جلد ثلاثين جلدة، لكنه لم يطرد من

حراسة الغنائم، وظلّ يأتي ويذهب، يمنح صدر الأم والأخت لمن تحتاجه، ويغني إن عثر على وقت، ويزداد تعلقاً بي، يعدني بهمسه المتهدج، بإخراجي من النار، وأكاد أجزم أنه مجنون، سيضيع في يوم من الأيام.

وكنت، وفي كل مرة، نحضر فيها طقساً من طقوس الموت، أو الإذلال تلك، أتوجس بشدة، أتوقع أن أرى واسطة خير، مستهتراً، طويلاً، تطل خصلة شعر بيضاء من تحت غطاء رأسه، وامرأة حاملاً في الشهر الأخير، تتعثر ويجرونها: باسيلي وأمبيكا، أو جمعة العائد، والخنساء، الفاران بحبهما من مكان مظلم، ليعيدا إحياءه في مكان منير، بحسب تفسير الإنسانية، والمرتدان الخائنان، بحسب نصوص المتقي، أو نصوص من اتبعوا فكرته المضيئة، وأظلموا بها. لكن ذلك لم يحدث قطّ، ولا بد أنهما عبرا إلى حيث لن يصل إليهما حد السيف.

كان باسيلي عاشقاً استثنائياً، عاشقاً مستفزاً في وفائه، وربما ساعدته ظروف أخرى غير العشق، لم تتوفر لجماري الزعيم، أو ميخائيل رجائي، الذي لا أعرف إن كانا حيين، أم رحلا وانتهى الأمر. ولا أنكر أنني كنت أيضاً أتوقع أن أرى أحدهما مجروراً بسواعد البطش، ليقام فيه حد ما، ولحسن الحظ، لم يصدق توقعي.

سمحوا بدخول الأم الجليلة، القادمة لزيارة بيت أم الطيبات، وكم كانت دهشتي عظيمة، وسعادتي لا يمكن وصفها، حين وجدتها جويرية، أمي وأم جميع المفزوعات في سرداب ساحة

المجد، مدلكتي في ساعة الفزع الأكبر، ومعالجة جنوني الموقت حين جننت...

ولأنني تدرجت في التعب، وانتهاك حياتي، وأصبح بإمكاني أن أجن وأعود إلى عقلي بمزاجي الشخصي، لم أعد بحاجة لخدمات جويرية، إلا لو كان في خفايا زيارتها باب قد ينفتح، وأفر عبره.

لكن من هي جويرية حقيقة؟ كيف لم تكنس مع الوسخ ساعة الفوضى؟ وكيف يسمح لها الآن، بالتجوال هكذا في السور، على ظهر حمار جيد، وبرفقة خادمين، خصيين، وأيضاً تستطيع زيارة بيوت الغنائم بهذه الطريقة الواضحة؟

وقفت مبهوتة وأنا أسعى لأحضانها، ذلك أن الإجابة صدتني، وكانت إجابة خطرة.

لقد انحنت منحدرة برغم كل ما نعرفه عنها من عدم لياقة، وقبلت يدها في شغف، وبركت أم الطيبات العجوز، على ركبتيها النحيلتين، المجعدتين، وقبلت رأسها.

تلك اللحظة عرفت أن جويرية، كانت في الواقع، مشرفة بيوت الغنائم كلها، الوحيدة التي تعرف طلاب الغنائم، من أمراء، ووجهاء، وتملك صلاحية أن تغلق أي بيت تشك في إخلاص رعاياه، أو تأتي منه رائحة مريبة، وتسوق من تشرف عليه إلى الموت. ويبدو أن بعض البيوت، التي لم يدقق في اختيار راعياتها، أو كانت خاماتها في الأصل، غير نظيفة، ومن بقايا حي ونسة القديم، قد اتجهت نحو تجارة الدنيا... هكذا سمعنا بلغة تلك الأيام.

أحسست بأنني غير متقبلة للأم جويرية بالمرة، وقد اتضح

الآن وضعها الكبير، المجرم، في الثورة اللعينة. كانت في سرداب ساحة المجد إذن، أماً مفترضة، وعيناً مستيقظة، واسعة، لا بد اقتنصت خامات كثيرة، وأوعزت بتوظيفها. كنا نضمها بشوق: أمي جويرية، نخاف أن تلدغها عقرب أو يعضها ثعبان، في مكان توفرت فيه الآفات كلها: انتبهي أمي العزيزة، خذي حذرك أمي الغالية...

خطرت ببالي أفكار مجنونة، أفكار تخطر أحياناً بالبال، ولا يمكن تنفيذها على الإطلاق، كأن أصفع الأم جويرية في خدها الأيمن بالذات، لأن فيه دمامل متحفزة لضخ الألم، أن أدغدغها في بطنها الممتد، وأسمع ضحكاتها المشوهة، أن أطرقع أصابع قدميها المتيبسة، أو أشدها من شعرها القليل المصبوغ بالحناء، أجرجرها في أرضية الصالة المتربة.

الآن ابتعدت عنها سريعاً، ركضت إلى الغرفة الطينية الضيقة حيث مآسي حياتي كلها يمكن أن تأتي إلى الذاكرة.

لا أريد جويرية التي استبشرت بها، وظننتها خلاصاً لي وموعد نهبي بواسطة المنتصرين، يقترب... ضغطت وجهي في الحصير المترب، وبكيت... بكيت أكثر من طاقة العينين، لأنني أحسست بأن عيني تورمتا، ولم يبق ثمة دمع يضخ مجدداً.

حين رفعت رأسي، كنت أفضل حالاً واستطعت أن أسمع منحدرة تردد بصوتها الريفي العالي:

– نعم النعناعة طاهرة الآن... يمكنها ذلك أمي جويرية.

-٣-

لم تكن أمي جويرية، وقد انتقلت إلى بيتها مرغمة بالطبع، منزهة عن صغائر تلك الفترة، بكل تأكيد.

كان الأمر برمته هواء ملوثاً وكئيباً، استنشقه الضالعون في اللعنة، سواء أن كانوا من أهل السور القدامى، أو من الذين جاءوا مع الفوضى، من أهل القرى والنجوع القريبة، والبعيدة.

لم تمهلني الأم الكبيرة، كما يلقبونها وسط عالم بيوت الغنائم، أي وقت لألملم ذكريات جيدة، من بيت أم الطيبات، أرتبها جيداً، وأتذكرها، في عزلتي القادمة، ولا حتى أبكي بتأن موت صديقتي القديمة ماريكار فندوري- مسبحة، الزهرة الأجمل في النار، وقد ورد إلينا الخبر، بكل تفاصيله النزقة، عن طريق أحد الرسل، والأم جويرية عندنا ما تزال. وجاءت منحدرة إلى غرفتي راكضة، لتخبرني، وأشم رائحة النشوة في صوتها، كان بلا عنف من ذلك الذي نعرفه، وخلته يرقص وهو يروي التفاصيل.

كان واسطة الخير الذي أخذ ماريكار، سامع حجيري، الصحراوي الذي من آل بطاح، مجرماً، وأشد إجراماً من حاملي

لغة الثورة أنفسهم، كما اتضح، لم يذهب بها إلى حيث كانت ستزف لأمير يعرفها من ماضي السور، وتعجبه، كما كان يفترض، وانفرد بها في خرابة بعيدة، في طرف من أطراف المدينة، قيدها إلى جذع شجرة ميتة، وانتهكها بعنف.

كانت تصرخ كما روى بعد ذلك، ويحاول إسكاتها، تصرخ، ويحاول إلى أن توقف تنفسها في النهاية، كانت بالمنطقة آبار عميقة، حفرها الغزاة إما طلباً للماء، وإما لدفن الأرواح المصنفة وسخاً. حمل الصحراوي ضحيته الدافئة اللينة، وألقاها هناك، أراد العودة إلى حياته مجدداً، واختراع حكاية عن همج اختطفوا الغنيمة النظيفة، ولا يدري أين ذهبوا بها، لكنه لم يستطع، كان وجهها المخنوق، مرسوماً في نظرات عينيه، يشاهده أمامه، في أي خطوة يخطوها، وحتى حين يغمض عينيه، يشاهده، لم ينم لأيام، حتى انهار، وأدلى بتفاصيل الحكاية... التي وصلتنا كاملة، ولم أر أي تأثير لها على وجه أم الطيبات، والأم الجليلة جويرية، حين رأيت وجهيهما وسط دموعي، بعد أن غادرت غرفتي أترنح. كأن ما حدث، مجرد لقمة وقفت في الحلق لحظة، ونزلت.

لمتني جويرية من حزني الجديد، حزني الأعظم على صديقة حقيقية، عشنا سنواتنا كلها معاً. لم يكن وجه الأم طيباً، ليس وجه عجوز سرداب ساحة المجد، لم تكن يداها عاطفيتين، ليست يدي عجوز ساحة المجد، ولا حتى صوتها يشبه ذلك الصوت الذي كان يشع عطفاً في سرداب ساحة المجد. طلبت من خصي طويل، وقوي، هو خادمها، أن يرفعني إلى ظهر حمار أليف، أحضرته

معها، ويسير بمحاذاتي، بينما خصي آخر، هو خادم أرفع شأناً كما تدل هيئته المتغطرسة، وملابسه المغسولة، اللامعة، كان يمسك بحبل حمارها العالي الأبيض.

كنت مغطاة الرأس، ومغطاة الوجه بساتر أسود كثيف، ولم أر الطريق قطّ، فقط أسمع وقع حوافر الدواب، ويتساقط فوقي المطر الخفيف، وربما سمعت صيحة معتوه، بلا معنى، أو صيحة جهادي يمجد المتقي: "أعزه الله وأكرمه"، ويردد خلفه آخرون: "أعزه الله وأكرمه" وكأنني سمعت وقعاً خفيفاً لخطوات متلصصة، وشممت لهاثاً أشبه بلهاث الخصي لولو الذي أعرفه جيداً، قريباً جداً، واستغربت أن يكون قريباً، والموكب الذي أنا فيه، موكب أم مبجلة من المؤكد أن الملثمين يتابعونه عن قرب.

في منتصف الطريق، سمعت صوتاً أعرفه جيداً، يسأل:

– من هذه السبية الفاخرة، أمي جويرية؟

– إنها النعناعة يا ولد... النعناعة يا عكرمة الضراب.

ردت العجوز وصوتها رشيق هذه المرة، كأن سياحتها في الهواء وتحت رذاذ المطر، ساعدت على رشاقته.

– النعناعة من يا أمي؟ لا أعرفها، هل هي من السور؟

– نعم من السور يا ولد.

– هل ستهدى لأحد؟

– نعم يا ولد.

– من هو أمي جويرية؟... أريد معرفته.

– لا تسأل كثيراً يا رسول المتقي، قم بواجباتك فقط... هذه

واجبات ليست لك.

وضّحت الأم، وقد جفّ صوتها الرطب فجأة، وخلتها قد رفعت يدها لصفعه، وأكاد أموت استغراباً ودهشة، ورعباً. كان الولد رسول المتقي عكرمة، صاحب الصوت المألوف، هو الشاعر مسمى طاؤوس، أحد شخصيات السور الركيكة، وقد غدا من جماعة المتقي، كما يبدو، وفي رتبة أعلى من رتبة واسطة الخير التي كان يشغلها باسيلي أكرم قبل جريرة فراره.

لقد كان مسمى غائباً عن السور أيام إرهاصات الغزو، واستبعدت بشدة أن يكون تحول هذا التحول القاسي، لكن هذا ما حدث: رسول المتقي؟ لا يمكن... لا يمكن أبداً... ترى ماذا كان سيقول ميخائيل، لو عرف؟

أحسست بما يشبه الرغبة في السعال، ولم أستطع أن أسعل، ما يشبه الرغبة في القيء، وتقيأت عطشاً جافاً. طلبت من الخصي الذي يمسك بحبل حماري أن يتوقف قليلاً، لأن عندي أنفاساً سقطت في الطريق وأود استعادتها، فلم يفهم. قلت: سأسقط إن لم تقف، فلم يهتم، وكأنه أسرع في جرّ الحمار أكثر، لأن الهواء آصبح أقسى ورائحة المطر ازدادت كثافة. وعلى طول الطريق، كان الهرج سائداً، الهرج العادي لأشخاص يمارسون حياة عادية، يضحكون فيها، أو يتحدثون بمرح أو غضب، والهرج المؤذي لآخرين يمجدون الثورة، يحيون المتقي: أعزه الله... أكرمه الله، سدد خطاه، ويحكون سيوفهم في أجسام صلدة كما بدا لي.

كنت في السور ولست في السور مع الأسف، أستدعي أقصى

طاقة للسمع، لأفرق بين ما أسمعه، وحاولت أكثر من مرة أن أزيل غطاء وجهي وعيني، لأرى، فأجد يد الخصي، الذي يقود حماري، قوية، ومرعبة، تمسك بيدي وتكاد تفتت عظامها...

حين توقفنا أخيراً في مكان ما في المدينة، شممت فيه رائحة رقي غابر، وجاءت أمي جويرية، وأزاحت الستار الأسود عن عيني، شاهدت مسمى طاؤوس يطالعني مبهوتاً وهو على ظهر جواد فاخر، ثم ينسحب. كنت لدهشتي، في مكان لا أعرفه فقط، لكني أعرف كل بوصة فيه، وهناك بوصات عديدة، أنا من أنشأها، في الحقيقة. لقد كنا في بيت أبي، بيتنا في حي كاهير، ولكنه ليس بيتنا نفسه، كان حطام بيت، برك بشدة، وأفلتت من هيكله الضخم بعض الغرف والصالات، ولا بد جرت معها كثيراً من الذكريات التي كانت فيها.

أسرعت أدخل حتى قبل صاحبة البيت، ولا بد لا تعرف شيئاً ولا تتخيل. ولو تأملنا تاريخ المصادفات المبهجة والمحزنة على حد سواء لما عثرنا على مصادفة بهذا الحجم، المبهج المحزن، حدثت أو تكررت كثيراً.

كان ثمة باب من الخشب البسيط غير المصقول، قد وضع الآن، مكان ذلك الباب الكبير المصنوع من خشب المهوقني، الذي لا بد اقتلع، لاستثماره في جني ربح ما... كان يوجد خصيان، ثلاثة أو أربعة، يتحاومون بحرابهم، ويبدو أن الثورة استوردت، أو استقطبت عدداً كبيرا منهم، من أجل صيانة النساء، أو قهرهنّ إن تمردن.

دخلت برفقة الأم الكبيرة، وكم كانت المصادفة أكثر عمقاً حين أدخلت إلى غرفتي... كان فيها بعض الأشياء، أشيائي بالطبع، وجويرية لا تدري أن تلك المرآة الكبيرة المكسورة، والمغطاة بالغبار، لي، ذلك المشط الناري، لي واستخدمته سنوات، بعد أن اقتديت بماريكار المسكينة، وكانت أول من اشترى مشط النار من هندي جوال، قبل أن يصبح سلعة مرغوبة.

كانت ثمة خزانة من الخشب الأملس، مغلقة، هي خزانتي بالتأكيد، فتحتها على عجل وعثرت على طوق شعر أحمر كنت أستخدمه في أيام المزاج الناري، وآخر أزرق اللون، هو طوقي المعتاد دائماً، وطوقين آخرين ما زالا جديدين، لم أستخدمهما بعد. عثرت على بقايا زيت شعر جاف، وبقايا مرطب من إكسير خلاصة السمسم الذي أحب استخدامه على جسدي، وأنتشي برائحته، لم تكن ملابسي الكثيرة موجودة، في الخزانة، وكنت تركتها كلها، قبل توجهي للسرداب. وفي ركن من أركان الغرفة، كانت لوحات أمي التي رسمتها، وتلك التي اشترتها من رسامين محليين ومستشرقين عابرين، وكانت تزين بها صالات البيت، وغرفه، جنباً إلى جنب مع تماثيل من الخزف والبرونز، ممزقة ومكومة بإهمال، ولا بد في انتظار أن تحرق أو تكنس من البيت.

لم يكن سريري المصنوع من خشب الزان المصقول، موجوداً، ولا وسائدي القطنية التي من ريش النعام، التي أمضيت برفقتها أيام الحب والرعشة، وكان ثمة حصير أصفر قذر، من سعف الدوم، ووسادة كئيبة، من وبر الإبل موضوعة عليه.

قالت الأم فجأة، ويأتيني صوتها من خلفي:

– ستزفين لإمام المتقين، أبشري يا نعناعة. أبشري...

وبهتّ... إمام المتقفين؟ المتقي، مشعل الثورة؟ غير ممكن؟ إذن فقد كانوا يعدون مصيبتي على مهل، ولم أنس في لجة تجهيز عرائس الأبرار. وجاءت جويرية، الأم المبجلة نفسها، بعد أن اكتمل طهوري، لتحملني إلى هنا ومنها إلى قبر الثورة الكبير.

بدأت أرتعش، أتهاوى في داخلي، وبكيت بحرقة، وتسألني الأم، وأراها قوية ومتغطرسة، وعالية النبرة:

– ما الذي يبكيك يا نعناعة؟ ألست سعيدة؟... ألست راضية؟

– لا شيء أمي.

وحقيقة لا شيء محدداً، فكل شيء غدا مأتماً، وكل شيء يبكي حتى لو كان من المضحكات.

– ما الذي يبكيك؟

– لا شيء، أم...

ولم أكمل. كانت الغرفة تتأرجح بي يميناً ويساراً، الخزانة الخشبية حيث أغراضي القديمة، السقف المكسر في مواضع عدة، الحصير القذر، وظلام لا أدري من أين ينبع، غطى عيني ولم أعد موجودة لأدون حكاية ما، أو أبكي على المضحكات المبكيات.

- ٤ -

فتحت عيني على مهل، وأحس كأن صخرة جبارة، وضعت على رأسي، لم أكن أرى شيئاً، وأحس باهتزاز عنيف، وأنني لست راقدة ولكن أجلس في وضع مرهق. حاولت أن أرفع يديّ إلى أعلى، أو أحركهما قليلاً، فلم أستطع، أن أحرك ساقيّ أيضاً، فأحسست أنهما مربوطتان إلى وتد رخو... كان ثمة صوت قوي لحوافر تضرب في الأرض، ورياح تزمجر، ولا أعرف هل فقدت بصري، أم أن هناك ستاراً قاتماً حجبت به الرؤية عني؟

اكتظت ذاكرتي فجأة بحوادث اللحظة الأخيرة، قبل أن أسقط، لحظة أن عدت إلى بيتي وغرفتي، وأخبرتني الأم الكبيرة بخبر اقتراب زفافي إلى المتقي، وخفت أن أكون على فراش مقدس، ملوث بالدم، خفت أن أكون التحمت بالمتقي، وفي سبيلي لأرى ذلك السر الذي لم يستطع أحد حتى الآن أن يعرف تفاصيله، أو يدلي بإيضاح عنه. وفي اللحظة التي احسست فيها بأنني امتلكت صوتي، وصرخت، أحسست بيد لينة الملمس، لكنها قوية، توضع على فمي، وتغلقه، وصوت أعرفه جيدا، يأتي لاهثاً، متقطعاً:

- لا تخافي يا نعناعة... نحن خارج السور... نحن في عراء كبير، ممتد، وسننجو... كما وعدتك.

أزاحت اليد النقاب الكثيف عن وجهي، واستطعت أخيرا أن أرى... كانت الصحراء شاسعة، ممتدة بالفعل، وكنت على ظهر ناقة، عريض، والخصي الغازي - لولو، يمسك بي وبحبل الناقة، في الوقت نفسه...

- ماذا حدث، يا غازي؟ ماذا حدث أخي لولو؟

لا أسأله حقيقة، وبرغم ذلك يرد. كان صوته هادئاً، ومتألقاً، وبدا لي الصوت المناسب جداً لإعلان أنباء جيدة:

- حررتك من بيت الأم الكبيرة، ومن السور كلها... قتلت كثيرين، وجرحت كثيرين، لكني حررتك. لا تخافي... لست قاتلاً، لكن الضرورة.

لم أكن خائفة بقدر ما كنت مندهشة وحائرة، وأحاول أن أكون ممتنة لقاتل طارئ، تعرض للخطر، وحررني إلى حين، ولا أدري هل فعلا نفدنا أم لا... لن أسأل عن أمي جويرية، المرأة الغارقة في تحرير أكثر الصفحات شهوانية في الحكاية، فلم تكن تهمني في شيء، ولو كانت من ضمن ضحايا الغازي، لما حزنت عليها.

واصل لولو:

- نحن قريبون من بئر أولاد جابر، بلدة أعراب من البادية، أعرفهم جيداً، وأعرف أن الثورة لا تقترب منهم، والملثمون لم يدخلوا بلدتهم قطّ. سنتزود من عندهم ونواصل الرحيل... لا تخافي أختي النعناعة.

كانت يده على كتفي، تتحرك بسرعة، لكنها ليست خشنة ولا قاسية.

أدرت وجهي ناحيته، أردت أن أرى عينيه، وأقرأهما، أرى أسنانه، إن كانت أسنان مبتسم أم مبتئس، أم أسنان وحش، وكان وجهه جامداً، لا يشبه وجه الأم أو الأختِ الذي كان يستخدمه في بيت العجوز أم الطيبات، حين يتحرر من حراسته ويزيل لثامه، ويدخل البيت. بدا لي أشبه بوجه صخرة، أو وجه أغنية جنائزية...

- ثقي بي حبيبتي النعناعة... ثقي بي أرجوك.

- خميلة يا لولو.

قلتها بمغص وتشفّ، وعداء كبير لجميع الأيام التي كنت فيها نكرة، سجينة بيت أم الطيبات، ومنحدرة، ويتم إعدادي ببطء لأكون عروساً للمتقي، من دون أيّ اعتبار لخصوصيتي، لحزني المتجدد، لضياع أهلي، لأشياء كثيرة، أشد أهمية من إرضاء مشته.

يا إلهي... ابتدأت رعشتي مرة أخرى.

والسؤال القديم نفسه، يتكرر:

- من هو المتقي؟ وهل فعلاً يوجد كائن بهذا اللقب، وكان من الممكن أن أكون الآن في فراشه؟

لم أستطع أن أتصور ذلك، وتصورت أن الفوضى التي نعيشها في السور وما حولها نبعت من فوضى أخرى قديمة، وتؤدي إلى فوضى جديدة، لو لم يوقفها نظام ما، ولو كان ثمة قائد فعلي ومسيطر، لما مات كل أولئك، وما عاش آخرون ليقتلوا من آخرين... هكذا.

- لكن من كان سيتزوج النعناعة؟

أسأل الغازي - لولو.

- هل تعرف أحداً شاهد المتقي وكلمه؟

الغازي كان خصياً بلا رجولة، ضحية قوانين تافهة، تحول الرجال إلى لا أحد. هذا حقيقي، لكنه لم يكن أمياً ولا جاهلاً كما يبدو. سأرجئ مسألة البحث عن حكايته المؤسفة، حتى يتوقف ارتعاشي، وحتى أعانقه معانقة تليق بما قدمه... لقد وعدني بتهدج وإصرار، ونحن سجينات أمي، أم الطيبات، والريفية العنيفة منحدرة، وخفت من وعده وبدأت أتحاشاه، لكنه لم يتركني، تبعني كما يبدو، وكان اللهاث الذي شممته في الطريق، وأنا أتبع أمي جويرية، حقيقياً إذن... لهاث محب يسعى لإنقاذ محبوبه.

قال الغازي:

- رأيي أن المتقي ليس حقيقة على الإطلاق، ولكن فكرة، قد تكون صالحة أطلقها صالح، وانتهت فكرة شيطان... هؤلاء الذين انتهكوا السور وأهلها، هم المتقي الآخر، المتقي الأول سيتبرأ من الفكرة، لو عرضت عليه الآن. أظنك تفهمينني.

- لكن إلى من كانوا سيزوجونني يا لولو؟

أسأله وتعجبني وقاحة تفكيره

- إلى أي واحد... أي واحد هو المتقي... ولأنك غنيمة استثنائية، فهذا الواحد، لا بد صاحب سطوة... ولا أعني من محرّكي تلك الفوضى الرهيبة، وإنما سطوة على جويرية... الأم المبجلة، سطوة على قلبها... ربما كان ابنها، أو ابن أختها، أو أحد

أقربائها... أو ربما لم يكن هناك زواج لك في الأصل، وكانت جويرية، ستحتفظ بك لمجرد الاحتفاظ بأحد ما.

أعجبتني فلسفة لولو، وفكرت بأنه لا بد تعلم أشياء أفضل من علم الجمال، الذي كان سخافة، وظننته علماً.

كنت ممتلئة بالأسئلة، ممتلئة بآلاف منها، ويبدو لولو مستعداً لوقاحة التفكير، والأجوبة التي ربما تكون حقيقية، أو متخيلة، لكنني سأتوقف لأنني تعبت... تعبت جداً.

بدأت أتلفت في هلع برغم طمأنة لولو، أخاف أن يكون مئات، أو عشرات الفوضويين، تبعونا، وأخاف أكثر أن يكون الشاعر مسمى طاؤوس، قد راقب الحكاية وشاهد معركة تحريري كلها، والآن يتبعنا وحده أو برفقة جهاديين، يودون التسلية بإراقة الدم. لكن لم يبد في الخلاء الشاسع، أثر للحياة، لا ظل، ولا معلم، ولا حتى أنفاس شيطان رجيم...

أخرج الغازي من جانب الناقة، خرجاً به ماء صاف، صب منه قليلاً في فمي وفمه، أخرج تمراً يابساً، وأقراص ذرة لينة، ناولني قرصين وتناول قرصاً... بعد نصف يوم سنكون في بئر أولاد جابر، وبعد نصف يوم آخر، في بلاد تحميها الآلة العسكرية، وإن دخلها الملثمون، لن يغفر لهم أحد...

كان الخصي قد عاد للثرثرة، ولكن ما أجمل ثرثرته! وقد أوشكت أن أسأله عن أبي، وهل يعرفه أو يعرف مصيره، ولكني خفت. خفت حقيقة، أفضل شيء أن أظل جاهلة بما حل بجماري الزعيم، وأعيش أتذكره وأردد دائماً: سنلتقي... سنلتقي. وإن

التقيت بأمي، سأخبرها بأنه حي لكنه باق في السور حتى تنظف من الدرن، ونعود ونلتقيه.

بالنسبة لميخائيل رجائي، راكب الفرس الأسطوري، الموصوف في قصيدة ريماس، لم يكن ثمة مكان له الآن، لقد تهدّم قصر الحب، تهدّم تماماً. عندي دكة حب صغيرة ومغبرة سأجعل الغازي

- لولو، يجلس عليها في ما يتبقى من العمر.

لكن يا لولو، المخارج محروسة جيداً، وكل شيء تحت العيون.

كيف خرجنا من السور؟ قل لي كيف خرجنا... رجاءً؟

لم أسأله، كان السؤال يتأرجح في ذهني فقط، ولم أخرجه، وأفاجأ أن الخصي يرد، يوضح:

- العنف أولاً، والمكر ثانياً... مكر الخصيان يا نعناعة.

- خميلة يا لولو، خميلة يا صديق، بالرغم من أنني لن أرتدّ عن الدين الجديد، وسأمسك به جيداً، وأدافع عنه أمام أمي، وأقاربي، ولا أظنه يمنعني من استخدام اسم أحبه، وكنت أستخدمه طوال حياتي... خميلة ليس اسماً زنديقاً، بل اسم وارف وظليل.

في بئر أولاد جابر، وحين وصلنا بعد نصف يوم، كان للغازي وقعه المميز، حياه الرجال، واحتضنته النساء، وزوّد بخامات الفرار، من أكل وماء. لم يسأله أحد قطّ عن تلك الفتاة، المنكوشة الشعر، الممزقة الثياب، المنطفئة العينين، التي ترافقه، وكأن الأمر عادي جداً، أن يمر الخصيان بصحبة نساء ممزقات ومرتعشات. وقال واحد من كبارهم: لا نناصر فوضى الجهاديين ولا نعاديهم... يمرون، فنرد السلام إن سلموا، ونستخدم بنادقنا هذه إن أرادوا

شرّاً، لكنهم لا يفعلون، ولا حتى يقتربون من إبلنا وآبارنا.. عندنا صك موالاة من المتقي... يحمينا...

وأود أن أسأل مجدداً عن المتقي، ولولو يمنعني بنظراته. ولا أعرف لماذا يمنعني.

كان النهار على وشك أن يستيقظ، حين دخلنا العراء مرة أخرى، بعد ليل قضيناه مطمئنين إلى حد ما.

الآن نحن في الصحراء، وفي قلب الأمل، وأحاول بقدر المستطاع، أن أجعل الأمل كنزاً وأفرح به، يقول الغازي، إن الصحراء لعبته مذ فرّ من الموت الذي كان سيلعقه في جزيرة العرب، وأصدقه، لأن لا خيار آخر، سوى تصديقه، وحقيقة لأنه كان جديراً بتصديقه.

-٥-

كانت الصحراء على امتدادها، ما تزال مدونة في عيني، حين فتحتهما في تثاقل، عطر الأمل ما يزال ينبض في ذهني، بكل فتنته، كان حلقي مراً، وجسدي واهناً، وأحس بأنني إما نمت مئة ساعة أو لم أنم على الإطلاق.

ألقيت بصري في ما حولي، لتضيع رسوم الصحراء فجأة عن نظراتي، ويرتسم شيء آخر، شيء محبط وسخيف تماماً.

كنت في غرفتي، أو بقايا غرفتي، ملقاة على الحصير الأصفر القذر، وتحت رأسي، وسادة وبر الإبل المتربة. أمامي خزانتي التي فتحتها حين أتيت برفقة الأم جويرية، وعثرت داخلها على أثار رفاهيتي الماضية: دهانات الشعر، مرطبات الجسد، مشط النار، وأطواقي التي كنت أحيط بها شعري، لأكمل الأناقة. أحسست بالوهن أكثر، وتأكد لي بلا أي تفكير مضن، أن فراري من النار مع الخصي الغازي- لولو، كان حلماً، صنعته الغيبوبة. في الواقع كان أمنية، ربما كنت أرفه بها عن نفسي وأنا بلا حواس.

لن أبكي مطلقاً، ولن أبتئس أكثر مطلقاً، وسأقول بأنني لست

أفضل من طائعة التي طار رأسها الغزير الشعر، في لحظة، وماريكار الجميلة، التي انتهكت وماتت، وألقيت في بئر مُرّة، ولا حتى أفضل من اللسان الغجرية التي استبدلت قميصي بقميصها، في سرداب ساحة المجد، بالرغم من أنني عشت في قصر، وعاشت في الشوارع.

سيزوجونني للمتقي كما يقول النص، كما تقول الحبكة، وسأكون الفريسة الكبرى للفكرة الأصل، وعليّ أن أخضع أو أموت. الآن لا مزاج لي على الإطلاق، لأقارن بين خيارَي الحياة والموت، ولكن المقارنة تأتي لاحقاً بالتأكيد.

أرخيت أذني أتسمع، ونهضت من الحصير القذر، التصقت بباب الغرفة المغلق، وكان من الخشب الجيد، نفس الباب الذي عاش معي سنوات طويلة. كان ثمة حوار ضاج بين أمي جويرية، ورجل كان موجوداً في بيتها:

– نحن متعجلون أمي، متى تسلمين النعناعة؟

كان يسأل.

والأم المبجلة ترد:

– إنها مرهقة يا واسطة الخير... إنها نائمة.

– هل هي طاهرة أمي؟

– نعم طاهرة... كما فهمت من بيت أمك، أم الطيبات.

تخيلت واسطة الخير يلعق شفتيه بلذة، ويصر على أسنان ناتئة، وصفراء من تحت لثامه الوغد، تخيلته أمير وسطاء الخير نفسه، ما دامت النعناعة ستزين فراش قائد الثورة.

- إذن هل نأتي غداً؟
- نعم يا أمير، تعال غداً، وتجد كل الخير.

إذن كان أمير وسطاء الخير فعلاً، والشرك المنصوب لعفتي، أكبر كثيراً من شراك الأخريات. لا مجال ليأتي ميخائيل رجائي في هيئة واسطة خير، كما جاء باسيلي أكرم، ولا مجال ليأتي جماري نفسه، إن كان حيّاً، وداخل فوضى الجهاديين، ذلك أن الكفار حتى لو تابوا لن يكونوا أمراء بأيّ حال من الأحوال. تقول الأم المبجلة: أبشري يا نعناعة، ولا تستطيع خميلة أن تصبح النعناعة، لتبشر أو حتى تقترب من البشر، ويقول الخصي لولو في الحلم المجهض، إن المتقي فكرة، ولا أستطيع أن أصدقه بعد أن ضاع الحلم.

تجرجرت مبتعدة عن الباب لأرقد على الحصير، وأتسلى بمفردات اليأس كلها، أغزلها، وأبعثر غزلها، في اللحظة التي سمعت فيها صرخات متتالية، وانفتح الباب بصورة خشنة.

كان أحد الملثمين يحمل سيفاً ملوناً بالدم، كان طويلاً، وداكن البشرة، وقد تدلى على جانبيه جرابان من الجلد، لا بد يحملان خنجرين. كان متعجلاً جداً، اقتلعني من وقفتي الواجفة، هرول بي إلى الخارج، وضعني على ظهر ناقة باركة، وركب، وأحاول الصراخ، ويهمس:

- لا تصرخي يا نعناعة... لا تصرخي، نحن في الطريق إلى التحرر. سنخرج من النار... سنخرج حالاً. أعدك بذلك.
- خميلة يا غازي، خميلة يا لولو.

كنت أستدعي الأمل الذي كان في الحلم وأستغرب من وجوده، أسأل والناقة الآن تراوغ الفخاخ كلها، وتواجه الصحراء:

- من هو المتقي يا لولو؟

- المتقي فكرة يا نعناعة، وليس شخصاً بعينه، هل تفهمين؟

- خميلة يا لولو... خميلة...

كنت أفكر، أفكر بلا ضغينة، ولكن أفكر. يتمدد شعار الخسارات الذي طمسته الغرابة، على ظهر ماريكار، في ذهني، ولا أستطيع محوه. الزهور الملونة، تأكلها النار، مؤكد سأبكي كثيراً في ما بعد... أبكي الخسارات القديمة والجديدة، والتي كانت ستحدث ولم تحدث والتي حدثت بالفعل، وكان يمكن أن لا تحدث، ولو صادف والتقيت المتقي الفكرة في ما بعد، في أي مكان أحط فيه، سأتحول إلى قاتلة... قاتلة أفكار... قاتلة للعقول التي تستخدم الأفكار، وتضل بها.

- هل تراني زهرة أخي لولو؟

كان الخصي الغازي، منتبهاً للطريق، منتبها للأملً، وحاذينا مضارب بئر أولاد جابر، حيث الأعراب البدو، الموالون للثورة نظرياً، والذين ضدها فعلياً، كما أخبرني لولو، لوحوا للغازي، حين شاهدوه، وأسرعوا ناحيتنا بإبل سريعة، زودونا بالماء وأقراص الذرة والشعير، وبعض النكات الصحراوية، التي قطعاً نحتاج لنبتسم بها في السفر. كانوا يعرفون الغازي، ويحبونه، وأبدوا استعدادهم ليكونوا أكذب الناس، إن تعلق الأمر بفرار خصي، تتبعه امرأة، زهرة ملونة أفلتت من النار ربما.

- هل تراني زهرة أفلتت من النار يا لولو؟
- نعم يا نعناعة... لكن النار ما تزال متقدة، وفيها زهور حية.
- خميلة يا لولو... خميلة... خميلة.

-٦-

- خميلة يا لولو... خميلة يا لولو.

كنت أصرخ وعيناي اللتان انفتحتا الآن عن آخرهما، تمتصان برعب وإحباط قاس، نفس بذاءة المنظر الأول، المنظر الذي آلمني حين دخلت بيتي وغرفتي، بصحبة الأم المبجلة، جويرية، وشاهدت حاجياتي المتبقية، وتذكرت تلك التي تلاشت، وسقطت بلا وعي. كانت خزانة الثياب الآن مفتوحة عن آخرها، وثمة قميص نسائي من قماش أصفر لماع، يتلألأ في الضوء النهاري، وعقد من فواريص ملونة، وطوق أحمر للشعر، وزجاجة مملوءة بسائل أصفر، موضوعة على الرف العلوي، في نفس المكان الذي كنت أضع عليه زينتي. أغمضت عيني وفتحتهما مرات عدة، وأرى الأم جويرية متكورة، ترتجف قربي، وتمسك بيدي، تقرأ أوراداً، أو تضع يدها على صوتي، ولا تستطيع إسكاته:

- خميلة يا لولو... خميلة يا لولو.

- من هي لولو يا نعناعة؟

تسأل وصوتها الآن غاضب جداً، ولا أرد، وأستمر في صرخاتي

التي يتردد فيها اسم الخصي، ليتلقف السؤال أحد ما، امرأة ربما، خصي ربما، فلم يكن ثمة أحد يبدو في دائرة الهلع التي تسيطر على نظراتي باستثناء الأم، ذلك أن صوتاً أنثوياً رقراقاً، انطلق يردد:

- مؤكد واحدة كافرة، أو ذيل من أذيال الكفر أمي المحترمة جويرية. النعناعة لم تصبح طاهرة بعد أمي، وتحتاج لتطهيرها جيداً... وإلا لوثت حياتنا... لوثت سمعتنا.

- صدقت يا أصيل. صدقت يا ولد.

قالت الأم الكبيرة، ثم رفعت يدها اليمنى فجأة، بوصات عدة، في الهواء وهوت بها على خدي الأيمن. كانت الغرفة الآن تدور بي، أحس برغبة في القيء، ووجع في أضراسي ووجع حتى في رغبتي في الحياة، أحس بأن كوابيس الفرار بصحبة ذلك الخصي الملعون الغازي- لولو، التي تكررت منذ سقطت، منحتني آمالاً مبالغاً في ازدهارها، وكانت مجرد كوابيس بلا معنى. ليتني مت أثناء الغيبوبة، ليتني لم أتبع الأمل، وأحتفي بلهفة لولو وهو يخنقني بحلم الفرار أيام كنت سجينة في بيت أم الطيبات، تحركني منحدرة، وأتحرك، أو ترصني في ركن مظلم وأنكمش. صدقت يا أصيل، صدقت يا ولد، وهذا خصي مبجل في بيت الأم الكبيرة، يحكي ويقترح، وتنصت الأم. أنا لست طاهرة؟ كيف ذلك؟ وقد مورست ضدي تقاليد الطهر أشهراً، لم أكن أستوعب جيداً، والرأس التي تدور، لا تتوقف. لست طاهرة في عرف النص إذن، فليكن، وليكن غسيلي هذه المرة في النبع الكبير، حيث يغسل حاملو أكبر قدر من الدنس.

كانت ثمة أسئلة كثيرة تتناسل في الدوار:

كيف صنعت تلك الكوابيس نفسها؟ كيف تكررت؟ وهل حقاً توجد بلدة اسمها بئر أولاد جابر، يقطنها أعراب يعادون الثورة ويوالونها في الوقت نفسه؟ لم أكن أعرف، ولا أذكر أن أحداً ذكر بئر أولاد جابر أمامي، في يوم من الأيام، حتى يتلقفها حلم أو كابوس يخصني. والخصي أصيل، رجل فرمت رجولته ولم يعد رجلاً؟ لماذا هكذا مستبد في بيت واحدة ربما ساهمت في فرم رجولة كثيرين مثله؟ لماذا كلما اقتربت أبتعد.

سمعت الخصي يتحدث مرة أخرى، وقد دخل الآن من باب الغرفة. كان طويلاً وداكن البشرة، مثل لولو والآخرين الذين لا بد جلبوا من بعيد. كان ملثماً تماماً، لا تظهر إلا عيناه، كعادة كل من اقترف منكراً في السور في تلك الأيام. وحقيقة أن الخصيان لم يقترفوا منكراً كما أعرف، لكنهم أنفسهم كانوا منكرات.

– هل أعود بها لأمي أم الطيبات مرة أخرى لتطهيرها جيداً أمي جويرية؟ هل أفعل؟مكتبة الرمحي أحمد

– نعم يا أصيل، خذها إلى هناك، خذها. حالاً.

ردت الأم العجوز، وأرى جسدها يرتعش، وكسوة أخرى من الغضب تغلف وجهها. كانت قد بصقت على الأرض المتربة حول الحصير القذر مرات عدة. قامت وجلست مرتين، وكأنها ألقت نظرات حزينة على الخزانة المفتوحة وما تحويه من أغراض لا بد فصلت من أجلي، أو بالأصح من أجل نهب عذريتي. لا أريد أن أفكر في ثورة الأم العجوز، وأنني خيبت ظناً عندها، وتأجل زفافي

أو انتهاكي، عند الفكرة الكبرى، أو الحظوة الكبرى عندها، كما قال الغازي - لولو داخل كابوسين متعاقبين، غريبين، لا أعرف كيف حدثا.

- سآخذها الآن أمي.

ردد أصيل واقترب مني. كانت رائحته سيئة، أنفاسه ملوثة بنكهات الأطعمة الفاسدة. رفعني من رقدتي بيدين قويتين ومدربتين على رفع الكوارث كما يبدو، حملني إلى الصالة الخارجية، التي طالما استرخيت فيها برفقة أمي أو أبي أو رواية رائعة، أو قصيدة مغردة، من قصائد ريماس. لفني بملاءة بيضاء، وغطى وجهي بغلالة سوداء رقيقة وهو يقول:

- سأدعك ترين الطريق، ربما تكون آخر مرة ترين فيها طريقاً. إبقي هادئة حتى تعيشي.

كان من الواضح أنني فقدت أهميتي تماماً عند الأم الكبيرة، ولم يعد يهمها لو مت أو ضللت أو حملني خصيّ مستهتر وألقى بي في بئر عميقة. التي جاءت بنفسها لتأخذني من مأوى أم الطيبات، وتسعى لتعدّني حتى أصبح عروساً شبقية لمثته غير عادي، الآن تصفعني بعنف، تبصق على سخفي، وتسلمني لخصيّ.

كان أغرب ما في الأمر أنني لم أعد خائفة، غسلت خوفي كله، حين دثرني أصيل بالملاءة البيضاء، وأركبني حماراً متعرقاً، قيدني على ظهره، بينما كان يركب حماراً واسع الظهر، وسريعاً، يجر حماري خلفه.

كانت السور الآن شبه مدينة، وأعني مدينة مدمرة لكن فيها

أرواحاً تتحاوم. ثمة ملثمون بلا عدد يجلسون على النواصي والأركان، بعضهم يبيع وبعضهم يشتري. ثمة دواب متنوعة تسير، أو تسترخي في الظلال. ثمة هجير لكنه غير لافح. ثمة نساء مغطيات الوجوه يبعن الذرة والطحين، وبعض حاجيات النساء من خواتم، وأساور قصديرية، وعقود من الخرز... كنا نمشي في شوارع السور، نتغبر ونمشي، وأشاهد حميراً عليها نساء مدثرات بالأبيض، ويجرها ملثمون تماماً كما يجرني أصيل. ولا بد نساء مدنسات سيعاد تطهيرهن حتى ينتهي الرجس.

فجأة تذكرت النبع الكبير، وأنني قد أساق إليه، وعاودني الخوف من الموت مرة أخرى، بعد أن طردته.

هممت أن أسأل الخصي، سألته بالفعل، وصوتي بعيد في حلقي:

- هل تأخذني إلى أم الطيبات ومنحدرة؟

- لا...

رد الخصي. كان صوته جيداً هذه المرة، ليس الصوت الملتوي المتعسف في بيت الأم جويرية، لكنه صوت أم أو أخت.

- النبع الكبير؟

سألت وأنا أرتعش.

لم يرد الخصي، كأنه لم يسمع، أو كأنني لم أطرح سؤالاً. لكز حماره بعنف، وانجرّ حماري وراء اللكز، كنا نبتعد عن روح المدينة شيئاً فشيئاً... نقترب من حقول جافة، كانت مزروعة بالخضروات، من قبل، يليها كما أعرف مدخل صغير للمدينة، كان جرى إغلاقه بالشوك والأشجار الجافة قبل الغزو بفترة، وأثناء

الاستعداد لملاقاته. وفي كوخ صغير من الخشب، في وسط أحد تلك الحقول، يبدو كان يخص مزارعاً أو حارساً. توارينا بحمارينا.

بغتة اقترب الخصي مني، احتضنني بعاطفة قوية ومؤلمة، كان يبكي وأبكي معه:

- شكرا يا لولو...

أقول من بين دموعي.

- مازلنا داخل النار...

يقول من بين دموعه.

لم أسأله كيف كان "أصيل" عند جويرية، وهو لولو الذي نعرفه منذ زمن، ويحرس بيتنا ووعدني بالخلاص، ويسعى ليفي بعهده. لعل هناك خصياً عند الأم اسمه أصيل وأعطى وظيفته موقتاً للولو... نعم هذا هو المرجح، ونادراً ما يميز أحد بين خصي ملثم، وخصي آخر ملثم أيضاً... لم أسأله كيف دخل كوابيسي ولن يستطيع الإجابة... حتى لو سألته.

كنت أبكي برعونة، ويبكي بانشراح، وألمح نشوة مؤلمة في يديه وقدميه وجسده المارد، وأتخيل وجهه يرقص من خلف اللثام.

- ما زلنا داخل النار يا نعناعة

- خميلة يا لولو

أصرّ على الاسم، وما زلت في النار، زهرة قد تحترق وقد تنجو، ويتحرك لولو بسرعة، وهو ينظر خارج كوخ الخشب.

انتهت لحظة العواطف كما يبدو، وحانت لحظة دحر العواطف كلها.

كان قد أحكم لف الملاءة من حولي بخشونة، بحيث غطت جسدي كله، وصرت أتنفس بصعوبة، طلب مني السكون الكامل، طلب مني الموت موقتاً إن استطعت، وربطني على ظهر الحمار، كما لو كنت جثة.

بعد مسافة ليست طويلة، وليست قصيرة أيضاً، سمعته يتحدث، وقطعاً لأولئك الذين يحرسون المدخل الذي قد يكون أعيد فتحه من جديد، لكنه يخضع لحراسة الجهاديين:

- السلام على أهل الهداية والتقوى.

رد صوت:

- وعليكم السلام، ماذا لديك؟

- جسد ملعون لملحد نجس، قتلوه في السور هذا الصباح، وأمرني رسول سيدنا المتقي أعزه الله وأكرمه بأن أدفنه في الصحراء، بعيداً عن الحضر، منعاً للنجاسة...

- ابتعدوا... ابتعدوا

سمعت أصواتاً عدة تهدر:

- أعز الله المتقي وأكرمه، أسرع به... أسرع، لعنه الله.

بعد فترة قصيرة أخرى، توقف المسير، أعادني لولو للحياة، وأراه يجر ناقة واسعة الظهر، لا بد استعارها من الحراس الهادرين الخائفين من الرجس. بركت، وجلسنا على ظهرها، ولكزها الخصي لتعدو بعيداً.

- نجحنا يا نعناعة... نجحنا.

أصرخ:

- خميلة يا لولو... خميلة يا لولو.
وأسمع صوتاً عجوزاً غاضباً يأتيني من بعيد:
- من لولو يا نعناعة؟

من والدتها الإيطالية ورثت الجمال، ومن والدها الثراء. كانت تخطو إلى العشرين حين عادت من مصر حيث درست علم الجمال فأشرق حسنها على مدينتها 'السور' بمجتمعها المتنوّع.

تظهر فجأة على الجدران كتابات لجماعة 'الذكرى والتاريخ' التي أعلنت الثورة على 'الكفار' مستبيحة المدينة قتلاً وذبحاً وسبياً باسم الشريعة.

اقتيدت النساء إلى مصيرهن أدوات متعة لأمراء الثورة الدينية، زهوراً ملونة تأكلها النيران.

الآن انتهى زمن وابتدأ زمن، وخميلة الجميلة التي صار اسمها نعناعة باتت سبيّة تنتظر أن تزفّ إلى أمير من أمراء الثورة لعله المتّقي نفسه.

أمير تاج السرّ روائي سوداني. تُرجمت أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية. صدر له في الرواية عن دار الساقي 'منتجع الساحرات'، 'إيبولا 76'، 'اشتهاء'، 'مهر الصياح'، 'صائد اليرقات' (في القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية 2011).

لوحة الغلاف للفنانة عالية الفارسي

